رأس مملوء حكايات

مقتطفات حياتية

أحمد طايل

* الحياة مواقف تتحول إلى ذكريات ، فاجعلوها سعيدة*

Edit with WPS Office

تقديم الكاتب المغربي : حميد المصباحي

سيرة أحمد طايل : رأس مليء حكايات

عادة يكتب الكاتب ،أو الروائي سيرته الذاتية عندما ينهي مشاريعه، سواء كانت أدبية أم فكرية ، دون أن يعني ذلك وجود هذه القاعدة وانطباقها على كل الكتاب والروائيين، فرجالات الأدب لهم خصوصية، فانت تجدهم أمام سير ذاتية مختلفة، فالروائي أو القاص، بل وحتى الشاعر، سيرتهم أي ذاتهم الشخصية حاضرة في مجمل إبداعاتهم الأدبية، ولكن بشكل غير مصرح به، وبذلك يمكن القول : إن الأدباء لهم سيرتان ذاتيتان، واحدة غير مصرح بها، وهي في شكل شذرات، وأخرى مصرح بها كعنوان، سيرة، والسيرة أيضا فيها نوعان واحدة واقعية ،وأخرى مفترضة أو لنـ ـَقـ ـُل متخيلة، و الأديب يشتغل بحواسه وخيالاته، ولا يمكن حصر القيم التي ينتصر لها، والتحكم في الدلالات التي يولدها من سيرته، ولذلك فسيرة الأ ديب أكثر تعقيدا مما يتخيل للدارسين والباحثين في السير، ولا يعني ذلك أن الأديب يكذب أو يزور أو يقدم ما ليس صحيحا أو مشكوكا في صحته، بل هو فاعل في انتصاره لقيمه والدفاع عنها، لكن بما يرى فيه قيم فنية وأدبية، تقـ ـَرّبه من القراء وتنال به إعجابهم، بل انبهارهم بما يقرأون ويتابعون، وهنا أحب أن أتحدث عن الأديب الروائي والكاتب أحمد طايل، من منطلق ما عرفت عنه من خلال كتاباته والانصات له بتمعن، واستشعار رهافة إحساسه الأ دبي الحكائي، فهو يرسم بما يرى ، ولكن أيضا بما يشعر، غير أن سيرته التي أحاول الاقتراب بها منه، متشظية فنيا وأدبيا، بحيث يفرض ترتيبها ترتيبا جديدا لا تسعف العناوين في شده ليبدو كسيرة تقليدية اعتاد الكتاب على تأليفها في شكل روائي، وهنا متعة الصعوبة، لذلك ارتأيت أن أسميها القصص السيرية الأدبية، كتجربة لأول مرة أصادفها على غير العادة، فالسيرة هنا في شكل قصص لم تتبع الزمن الواقعي والتراتبي، بل اختار لها الأديب أحمد طايل صيغة أخرى، هي ما أحاول فك رموزها والاقتراب من عوالمها بما عرفت عن النقد الأدبي والروائي خصوصا:

1_الرأس والحكايات:

Edit with WPS Office

عنوان القصة الباب، بدوار يا زمن، في صفحتها 24 يقول: "من ينسى أمسه لا يوم ولا غد له" ، والحكمة واضحة، ففي الحكمة اللا تينية يقولون، نفي الماضي يعني العيش بدون مستقبل، لكن عبارة أحمد طايل، نتيجة تجاهل أو نسيان الأمس لا تهدد المستقبل وحده، بل حتى الحاضر، لكان الكاتب يدعوك منذ البداية لإدراك حقيقة الأ مس وضرورته لتنصت لما فات وهم يحكون عنه، فحاضرك لن تفهمه بدون أن تعرف ماضيك، وليست هذه حكمة تاريخية فقط، بل هي حياة بأكملها في الوجود والسياسة والمعرفة وحتى الأدب نفسه، ولا يمكن حفظ الذاكرة إلا بملازمة المكان الذي حدثت فيه الوقائع، وهو القرية التي ولد بها الفرد، وهو أيضا الوطن بعد المدينة، وبذلك كانت الهجرة شبيهة بالنسيان لأنها تنتهي بمأساة الموت التي عبر عنها أحمد طايل وهو يطل من نافذة الزمن والوطن بعنوان:

2_ طائر الموت:

الأسماء أحيانا هي أفكار، يتم استحضارها بفعل عادات الحكي، لذلك سأتعامل معها كأفكار من خلال ما يصدر عنها من أفعال، فقد مارس المحكي عنه الصيد بالسنارة، ثم انتقل للصيد باليدين، كإحالة على كثرة الأسماك وكبر اليدين وربما قوة الجسد والانتقال من الطفولة للشباب، لكن الصيد لم يعطل قوة الجسد وحرقة السؤال، فكانت حلقات الذكر ومعها الدروشة حلا لما هو روحي، بتأجيل الأسئلة و التغلب على الرغبات التي لا يسمح بالتفكير فيها مليا، كل هذا دفعه للسفر ولم تطل الغيبة، إذ عاد المهاجر مع زوجة عراقية، فوجد البيت خربا بموت سكانه، كانه يقول له، عدت بالسلامة وقد حققت ما أردت، فهل أنت تحيي الموتى ومن تحب بعد أن هجرتهم، فما الذي يخفيه أحمد طايل بهذه الحكاية؟

إنه يدافع عن ضرورة حفظه للبيت الأسري الذي يعتبره وجوديا هو مبرر حياته واستمراره، وهذه الحكاية تقود للتالية بقصدية، فالأب هو عماد الخيمة وعضدها.

3_ أب

في الصفحة 30 الوردة لا تنبت شوكا، فالأعراق الطيبة كالورود، لا

Edit with WPS Office

تنبت إلا ورودا، وهي نفسها نصيحة الأب لأبنائه في الصفحة نفسها(لا تبخل عن فعل أي شييء يسعد انسانا حتى لو كلفك الكثير)

لكن بأي دافع، فالأب هو ابن لمن علمه، لكان الخير فيه الموروث و المتعلم، وأحيانا يكون الطبع غالبا للتطبع كما قالت العرب قديما، فماذا يقول الجد؟

4_ الجد

في الصفحة الموالية31 يقول الجد (سيروا حاملين العطاء، سيروا وأمام أعينكم الله)

إنها حكاية الجد الذي استقر بقرية فأنبت فيها خيره، وعلم الناس كيف يحبون بعضهم، وألا يستغنوا عما ينالون به حب غيرهم واحترامهم، فلا يهم ما تأخذه منهم، بل ما تقدم لهم، لكنك تسأل أمام هذه العطايا، أين هي شرور القرية أم أنها خالية منها عكس المدن؟؟

5_ حادث

القرية والأخوة فيها لا يعكر صفوها إلا الميل إلى ما هو غرائز تتخذ شكلا عنيفا، فينقلب الخير إلى شر في لحظات، ليتولد الانتقام في صيغته العرفية، أي الثأر، بحيث تتسبب الغازية "نوجا" في انبعاث نار الغيرة بين الصديقين الشبيهين بتوأمين، هما، طالب ومعوض، فيقتل أحدهما الآخر فيحكم عليه بالسجن وبعد انقضاء محكوميته والقبول بالدية، يعود للقرية فيجد أهل القتيل في انتظاره ليثأروا لقريبهم.

6_ العطاء

الناظر يذكره كما هي عادة الرؤساء عندما يلاحظون تفاني غيرهم في عملهم، يقول ناصحا:

(انتبه لنفسك، أنت تجهد نفسك(ص52)

فيكون الجواب عن(اليوم الذي يمرعلى الإنسان دون أن يضيف له شيئا، لا يحتسب) ص53

Edit with WPS Office

وهذه القصة تنضاف إليها الموالية:

7_ وفاء نادر:

حيث الوفاء الذي لا ينسى به الناس بعضهم، وإن لم يقدموا خدمة لـ لآباء يبحثون عن أبنائهم .

8_ صداقة:

وهي إحدى صيغ الوفاء، وهنا يقدم الروائي أحمد طايل نموذجا للصداقة بين الكتاب، كشعراء وروائيين مستشهدا بما قاله الكاتب الروائي، ابراهيم أصلان) عاش جيلنا أحلاما كبيرة وخيبات أمل كبيرة أيضا) ص62 وأصلان هو كاتب رواية " مالك الحزين" التي تحولت إلى فيلم الكيت كات، بطولة محمود عبد العزيز، ان هذه الحكايات التي يستحضر فيها كتابا آخرين مثل، جابر عصفور، سعيد الكفراوي، سمير سرحان، لهي استحضار أيضا للموروث الشعبي في طيبته ولكن أيضا للموروث الثقافي الذي عرفت تغيرات هو الآخر وتحولات، لنجد في الأخير قصة صادمة، لكنها رصد لعالم غريب ظهر في العالم العربي كله ولم تكن مصر فيه استثناء، مع تغير الأ سماء فقط.

الحلنجي : اسم من رواية محمد فريد، وهي تلك الشخصية المحترفة للسياسة كوسيلة للرقي الاجتماعي، والتي يغتني بها هذا النمط من البشر، لكنه قد يضيع بها عندما يقترف أخطاء قاتلة في سلوكه السياسي، أو يذهب به طموحه أبعد مما وضع له.

العودة:

لكنها الرسالة الأخيرة، التي مفادها، عودة الذات لما كانت عليه، فبعد موت الوالد والوالدة، كانت العودة دلالة على حب عالمهم في القرية كبديل لشقق المدينة التي افتقدت معها كل معاني الحب والحميمية التي اعتادها الطيبون في حياتهم، سواء كانوا كتابا أو اناسا عاديين.

ما الذي سعى إليه الروائي أحمد طايل من خلال هذه التجربة، أو ماذا تحقق بهذه السيرة، وما أثرها الأدبي والجمالي؟؟

1 عالم منكسرات:

Edit with WPS Office

لم يعد العالم أمامنا منذ ظهور العولمة كما هو، فقد تشظت فيه وحدة لتهيمن قيم العولمة، وهي مفارقة غريبة، إذ العولمة تخلق وحدة في أنماط السلوك الاستهلاكي المتشابه بين كل الثقافات، وفي الوقت نفسه، تعمل على خلق صراعات وتمايزات من خلالها تهيمن بإضعافها حتى لا تترك لها المجال لممارسة اختياراتها، كل هذا كان له تأثير على الفكر والأدب، إذ الذات لم تعد قادرة على التعرف على ذاتها في المنتظم والموحد، بل في المتعدد، أمكنة، قرية ، مدينة، قديم ،جديد، رواية ، قصص، حتى عالم الفن عاش ثنائياته الخاصة، الرسالة _ الربح، الحب_ الجريمة، الاستقرار_ الهجرة.

2_ رواية قصصية:

القصص المذكورة هي عبارة عن رواية متشظية، الذات حاضرة بشكل صريح في بعض القصص، وفي أخرى هي مضمرة، تنوب عنها شخصيات أخرى، ترتدي ثوبها أو تحمل صفاتها أو حتى تغضب غضبها وتتكلم لغتها، والسؤال، لماذا يفعل الكاتب ذلك؟

يتطلب الأمر قراءة لكل أعمال أحمد طايل، لكنني سوف أغامر مدعيا أنني فهمت رهاناته، فالروائي ابتداء من عمله الرابع أو الثالث، يبدأ ميله للتجريب محاولا تكسير عوالمه بأشكال جديدة، تتضح فيما بعد عندما يمسك النقد الأدبي بنظمها التعبيرية والنسقية، فيعود لقراءاتها ومختلف انشطتها القرائية وحتى الكتابية، وبذلك يكون الروائي أحمد طايل مفكرا في تغيير أسلوب الكتابة الاعتيادية وغير مطمئن لما ساد حول الشكل الروائي، خصوصا السيرة الذاتية.

3_ القيم والمثل:

إن الروائي أكثر الأدباء تفاعلا مع العالم، فقد اعتبرته في كتابات سابقة لي، سوسيولوجيا فاشلا، يدرك الظواهر الخفية، لكنه عاجز عن حلها بحكم أدبيته، ولأنه كذلك فهو مفرط في حساسيته تجاه القيم الجديدة والقديمة، فلا ينتصر لجدة الجديد ولا قدم القديم، بل يبحث عن الانساني فيهما، ولأن الحداثة كانت عنيفة في اقتحامها لعالمنا العربي، فقد وجدنا أنفسنا في مواجهتها بما طلناه من قيم وأحكام أدبية، بها ينتصر الأديب لأدبية الفكرة وجمالية الرفض و

Edit with WPS Office

البطولة في عالم بلا أبطال.

حميد المصباحي..المغرب

=1=

مشهد حياتي

======

بداية : اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي ، أنا (جلال سيد منصور) ، من (آل منصور) لأسرة ذات مكانة ومهابة ، تتوارث العمودية على مدار عقود بعيدة المدى بقرية (الرملة)، التابعة لمركز بنها، أبي (سيد منصور) شيخ بالمعهد الديني بالقرية، خرج من عباءة العائلة التي ترسم لأبنائها طريقا واحدا، للكليات العسكرية لا على تعددها، أو الا لتحاق بكلية الشرطة وما دون هذا تكون الأولوية لكليات الحقوق، ا لأب هو الوحيد الذى غرد خارج سرب العائلة، وأصر على التعليم الأ زهري الديني، وكانت حجته أثناء الجدال الكبير بينه وبين أبيه وأعمامه انه يريد ان يكون بمعيه الدين والفقه، ومعرفة الحقوق و الواجبات، هو يجد نفسه مشدودا لهذا العالم، يحب ان يلبس الزى الأ زهري حتى لو ناله ما ينال طلاب الأزهر من سخريات بعض من يماثلونهم عمرا، مثل قولهم (شد العمه شد، تحت العم ّه قرد)، وكان له ما أراد وأثبت نبوغا غير معتاد وغير مسبوق بكل الأمور الدينية والفقهية، صار يصعد منابر مساجد القرية، خطيبا مفوها، ملما إلماما كبيرا بما يتحدث به،خيوط الحديث سلسة بين يديه، دفعته نجابته وذكاؤه ان أصبح يسأل من الكثيرين في أمور الدين، وعلى مدار الأيام ضاعت غضاضة رفضه ان يكون على نفس مسار أهله ، أبوه تباهي به في جلساته العديدة، ويستدعيه ليحدث ضيوفه في أمور دينية، ويقص عليهم قصص آل البيت بطلاقته

Edit with WPS Office

اللغوية، ويبدو ان أبى كان دوما بحالة جدال مع الأسرة صلب الرأس حتى لو جمع الأب إخوته للضغط عليه، لا يتراجع مطلقا عن أي قرار أخذه، حتى ان أباه كان يردد دوما.

= لا أدرى من أين أتيت بهذا الرأس العنيد ؟

في النهاية كان الكل يرضخ له، عندما انتهي من دراسته الثانوية الأ زهرية كان يطلب دائما لإمامة الصلاة، يتمتع بصوت رخيم تخشع له القلوب، كان متفوقا بكل سنوات دراسته، عند بدايات الجامعة أقنع ا لأب بفتح كتاب لتعليم الصغار القران الكريم ، عملا بالأثر: خيركم من تعلم القران وعلمه ، كان يكنى دوما من عمر العاشرة بالشيخ (سيد)، بزغ اسمه علميا ، وأصبح مثلا يضعه الآباء والأمهات أمام أو لادهم، عندما انتهي من تعليمه الجامعي واستقر مدرسا بالمعهد الدين ي بقريته والتي ساهمت أسرته بالكثير من أجل إقامته، أسرع إلى و الده يطلب منه ان يتزوج ، اتسعت حدقتا الأب دهشة وضرب كفا بكف ، هل هذا معقول وبعضا من إخوته الأكبر منه لم يفكروا بهذا ! تمتم الأب بصوت مسموع ، جئنا مرة أخرى للنقاش والجدال، واجهه صارخا بوجهه.

= ماذا بك ؟ عاقد عقدا مع كل مسائل الجدال ، نخرج من جدل إلى جدل جديد، المفروض كنا أسميناك (جدل)، والله أمرك غريب.

= يا أبى الحبيب هل طلبت أمرا سيئا أو منبوذا ؟ "من استطاع منكم الباءة فليتزوج" وأنا أطلب شرع الله الحلال ، ونحن قادرون و الحمد لله، وإن كنت ترغب أن أعتمد على نفسى أفعل، والله معي لن يخذلني، ماذا قلت؟

شرد الأب قليلا، فهو يعرف أنه في النهاية لن يستطيع التصدي لتفكير ابنه الذي يجيد النقاش والإقناع، رفع رأسه، صوب نظره له بقوة، سأله.

= وهل قمت أيضا بتحديد العروس ؟ أم ترغب منا ان نختار لك؟ وهذا ما أظنه بعيدا عن تفكيرك كعادتك، تختار وتقرر وعلينا نحن أن نوقع ونبصم على اختياراتك، صح؟

Edit with WPS Office

انتابت الابن نوبة ضحك عارمة استمرت وقتا، ثم قال.

= أبي بجد أنت أب رائع، تفهم كل أبنائك وماذا يدور برؤوسهم، نعم يا أبى اخترت وحددت، وربما تنال رفضا منكم، ولكنى أتمنى أن توافقني على اختياري.

تجهم وجه الأب وجحظت عيناه وصرخ به.

= انطق من اخترت ؟ يا رب يكون اختيارا لا يؤدى لجدل، لم أعد قادرا على ملاحقة جدلك الذي لا ينتهي.

أطرق الرأس قليلا ، الكلمات تأبى الخروج من فمه ، استجمع أشلاء شجاعته، همس.

= (ثريا بنت أحمد الملاح).

ارتسمت أمارات الدهشة بكل صورها على محيا الأب، وفغر فاه دون ان ينبس ببنت شفة، أخذ منه هذا الوضع بعض الوقت، قال بعدها.

= هل تعرفها؟ تحدثت معها ؟ لماذا هذه تحديدا؟

= أولا انت تعلم جيدا تربية ابنك وتفكيره، فقط أنا لست متطرفا بفهمي وتعلمي الديني لست متزمتا ، وأيضا لست أرعنا، أعرفها لأنها أخت صديقي (منير)، وأظن أنك رأيته مرات.، كان يذاكر معي لأننا كنا زملاء كلية واحدة، لم أتحدث معها مطلقا، أنا ممن يغضون البصر ؛ غض البصر أقوى رادع لنوازع الشهوات ، أما لماذا هي؟

أولا أعرف أنك تقصد الفارق الاجتماعي ، رغم أني لا أؤمن بالطبقية مطلقا، كلنا أولاد تسعة، وليس هناك تمايز بين غنى وفقير، وقالوا في المثل: "خذوهم فقراء ليغنيكم الله" ، أنا ما يهمني هوالتميز الأخلا قي، والتربية الدينية، والقدرة على تحمل أعباء الأسرة، وهذا ما ل مسته من تعاملي معهم على مدار سنوات ، لمحتها مرات مجرد لمحات سريعة، الملامح آخر ما أفكر فيها ، أفكر دوما بالجوهر الا نساني، وأترك لك فرصة أن تتحرى وتسأل رغم علمي أنكم تعلمون كل من بالقرية.

Edit with WPS Office

اكتفي الأب بهز رأسه موافقا على هذه المهلة رغم يقينه أن ولده لن يتحرك قيد أنملة للتراجع عن قراره .

الأم عادة لا تتدخل إلا ببعض النصح، قالت له.

= فكر ألف مرة، النسب يضيف أو يسلب، لا أقلل من شان أي أحد، فقط قرب المسافة بالاختيار بين مصاهرتك ومصاهرات من تزوج من إخوتك وأبناء عمومتك.

أشار إليها مطالبا بالسكوت، واضعا يدها بهدوء على فمها مانعا إكمال حديثها.

= يا أمي ! لست مثل أحد ، وليس من المفترض ان أسير بمسار أحد، لا أهتم بثروة منتظرة، ولا بوجاهة اجتماعية، ثم لتعلمي ويعلم الكل أننا لسنا من نختار، اللّٰه هو من يوجه خطواتنا ويحدد أقدارنا وا ختياراتنا، وأنا وفق مشيئته لا أحيد عنها.

لم يكن أمام الجميع مناص من الإذعان لرغبته، كان أول من أوجد الزفاف الإسلامي بالقرية، حيث جانب يخصص للرجال، وآخر للسيدات، لا غناء ولا رقص ، فقط أناشيد دينية تناسب الزفاف، منحه الأب حجرتين من البيت الكبير، المبنى على مساحة قيراطين ، محاط به حديقة بها الكثير من الأشجار الباسقة، وعديد من أشجار الزينة والفاكهة .

ليلة الزفاف حكاها لأبنائه مرات عديدة، عندما أغلق عليهم باب إقامتهم، كانت العروس شديدة الخجل والخوف، خطواتها متعثرة، ربت عليها كثيرا مانحا لها نوعا من الاطمئنان وإزاحة الرهبة، أجلسها بهدوء، أتى بمصحف، أخذ يقرأ بصوت عال بعض الشيء، عندما انتهي أمسك بمعصمها، وأنهضها وطلب منها الدخول لحجرتها و تبديل ملابسها والاغتسال والوضوء ليصليا صلاة شكر لله والدعاء بان يملأ حياتهم بالهدوء والسكينة وأن يبعد عنهم أي منغصات، بعد أن إنتهيا جلسا لتناول العشاء مع تبادل نظرات تقول الكثير والكثير وبسمات تعلو الشفاه تضيء الوجوه، ثم أدخلها الحجرة وغادر إلى النوم بحجرة أخرى غير متبرم أو ضجر.

Edit with WPS Office

في اليوم التالي قالت لأمها (الباتعة ربيعة) أو (الباتعة غزالة) ـ كما يسمونها بالقرية نسبة إلى أمها (غزالة)ـ السيدة التي تعمل كامل اليوم ولا تكل، ودوما الضحكات مسترسلة من ثناياها، أسموها (النحلة)

= إن هذه الليلة ليلة زفافها تركت بها أثرا لن يزول على مر أيامها، أثبتت هذه الليلة انها تزوجت رجلا يفهم ويعي ان الرجولة تعامل وإ حساس ورقي .

احترمها وأكرم حياءها، تعامل معها إنسانيا ، لم يتعجل على قطف ثمارها، لذا عندما أعطاها الأمان والحنان، أعطته كل شيء بكامل إرادتها ؛ لذا غلفت الأيام بحب وسعادة ، كانت (ثريا) في البيت، دؤو بة الحركة، تخدم الأسرة دون أن يطلب منها،إشراقة الفرح تملأ صفحة وجهها على الدوام حتى لو بها وجع أو مرض، كانت تسعد وتزداد توهجا عندما تربت يد الحاجة (نعيمة)ـ أم زوجها على كتفها ، أو توجه لها كلمة حلوة تداعب فؤادها، كما كان جدي (محمد منصور) يهش لها ، ويبتسم في وجهها، يقول لها.

= فعلا (الواد سيد) اختار صح . بنت أصول ! ربنا يبارك فيك وفي صحتك وعافيتك!

جدي كان قليل الكلام ولكن مع (ثريا) انفكت عقدة لسانه وزال تحفظه ـ الفعل الجيد دافع لفتح أبواب الصدور بطلاقة حتى لو كانت مغلقة من أزمان وأصابها الصدأ، تنهض قبل الفجر، تغتسل و توقظ زوجها، لينهض ويغتسل، يجلس فاتحا مصحفه، وهي خلفه قليلا، تفتح المصحف، تقرأ بصمت أما هو فيقرأ بصوت مسموع، صوته رخيم، خاشع، وينهضان للصلاة، هو يأخذ طريقه إلى المسجد ، يقف أمام البيت مع إخوته ينتظرون قدوم الأب، طقس اعتادوا عليه منذ نعومة أظافرهم، لا يتغير أيا كانت حالة الجو حتى لو كانت تمطر سيولا، يعود بعدها يجلسان للدعاء لفترة ليست بالقليلة ، ينهض مقبلا جبينها، رابتا على كتفيها، تذهب لإعداد الإفطار، يتناولا نه بين مداعبات لطيفة ، يطعمها وتطعمه، يقتسمان اللقيمات، كانا وإلى آخر أيامهم يعيشون حالة عشق، وكأنهم ببدايات العمر، حتى

Edit with WPS Office

بوجود الأبناء على اختلاف مراحلهم العمرية، كانا مؤمنين أن إظهار الود والحب والصفاء ينتقل إلى الأبناء دون إملاء أو طلب، بعدها يـ أخذ يدها، ويصعدان إلى السطح، هو مغرم من الصغر برؤية الندى يبسط ذاته على كل شيء صيفا، ورذاذ المطر الخفيف يهطل حانيا على الوجوه شتاء، يعشق رؤية إنبلاج الشمس رويدا رويدا، يعشق رؤية ميلاد اليوم الجديد يهبطان، يسرع إلى ارتداء ملابس العمل، يميل على أولاده يقبل جباههم، يلقى عليهم السلام، تسرع هي إلى ترتيب الحجرتين، تساعد الأولاد بتجهيز حالهم للذهاب إلى المدارس ، تتحقق من أن كل منهم لم ينس شيئا، ثم تعمل على تنظيف باقي البيت، والمطبخ. أنجبت (محمد) أول الأبناء، بالريف عادة مازالت راسخة به، إطلاق اسم الجد على أول حفيد أن كان ذكرا ، وإطلاق اسم الجدة إن أتت أنثى، ثم أحمد على اسم جده لأمه، فلابد من نصيب له من غنيمة الأسماء، ثم أتى (جلال) و(وحيد)، وآخر العنقود (روضه) دلوعة البيت بالكامل رغم انها ليست الحفيدة الأ ولى؛ ولكن لعدم إقامة أعمامي المتزوجين بالبيت بداعي أعمالهم كانت هي من نالت كل الأنصبة، اعتاد أن يوقظنا قبل الفجر، يغسل وجوهنا، يقوم بمتابعة وضوئنا، يجلسنا دائرة حوله، هو مدارها وأمنا أيضا، كل له مصحف، يقرأ ونحن نردد وراءه، نصلى جماعة،بعدها كان له طقس غريب، يخرج بنا إلى فناء البيت، يصنع منا طابورا يؤدى تمارين رياضية، نقلده وهو يردد.

= نشطوا أنفسكم أزيلوا كسل الليل عنكم ، ورحبوا بيومكم الجديد. بعدها إفطار، التمارين تجعل شهيتنا على أهبة الاستعداد لالتهام كل الطعام ، وسط مناغشات وضحكات ونظرات أبوية تقول الكثير، يعود من عمله، يغتسل، يدخل حجرته لبعض القيلولة، في وقت محدد ومعتاد توقظه أمي بهدوء لتناول الغذاء، ليلا يجلس بيننا يحكى قصص الأنبياء والمواقف النبوية الشريفة، يذهب بنا إلى أسـ ـرّ ـنا، يغطينا ، يمرر يده على وجوهنا، يقبلنا ثم ينصرف ممتلئا حبا وحنانا، يدخل إلى حجرة خصصها كمكتب ومكتبة، يقرأ في كتب الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، ويقرأ للعلماء المعاصرين، يعقد مقارنات بينهم، يخرج بنتائج مهمة تضيف إلى

Edit with WPS Office

فكره، بين الحين والآخر تأتيه بمشروب دافئ، بعد انتهائه غير المحدد بوقت يخلد للنوم، تتغير مسيرة طقوسه كل خميس، يذهب بعد أداء صلاة العشاء إلى بيت (عبد العزيز بدر) أحد المتصوفين، الذى يقيم حضرة وحلقة ذكر يؤمها الكثير شبابا وشيوخا، يعود بعدها كانه سابح بالفضاء، يدندن بصوت مسموع ببعض الأدعية و التراتيل التي أداها بحلقة الذكر، ينام بعدها هادئا تماماً، وجهه مضيء يشع نورا، حتى أن (ثريا) أمنا كانت تداعبه.

= يبدو أني تزوجت نورا ساطعا، ما أسعدني.

بالفعل كان رجلا نورانيا ، الصفاء يسكنه، هاشا باشا بكل الوجوه، كان مثل "البابا نويل" يوزع هداياه حنانا على الجميع، كان يردد دوما،

= إن لم يستطع الإنسان اكتساب محبة الناس يكون بعيدا إلى حد كبير عن محبه الله "من يحبه ربه يحبب الناس إليه" .

كان أحيانا يقول لنا.

= سوف أخطف رجلي وأذهب إلى بنها، لأقرأ وأتصفح الصحف ؛ لأ عرف مجريات الأمور ، وما يحدث حولنا.

يذهب إلى محطة القطار، الرصيف الأول، حيث يوجد (صادق) ـ أحد باعة الصحف ـ كان يمنحه الكثير، يقرأ الصحف والمجلات كما يشاء، ربما يعود أحيانا إلينا ببعض مجلات الأطفال، وبعض صحف يرى أن بها كتابات تستحق الاستغراق فيها بهدوء فيما بعد ، كان أيضا يحضر الليالي الختامية للموالد أينما وجدت، اليوم الختامي يجمع بين كل صنوف البشر، من جاء يزيح هموم أيامه بالذكر و الدروشة، من جاء ملتمسا البركة ومحبة آل البيت، ومن جاء باحثا عن شهوة وغريزة وإشباعها بالشم واللمس وربما توصل لما هو أكثر.

هكذا عشت في أجواء أسرية لها طقوس تنعش الروح، لم ينغص حياتنا أي أمر إلا مرض الجد الذي استمر طويلا، الحزن والألم أصبح شريكا مقيما بالبيت، الجد متحمل لا يشكو رغم علم الجميع مدى شراسة مرضه، كان يطلب كل الأحفاد، لنتجمع حوله ، ويطلب خروج الكل دوننا، يجمع أيدينا فوق أيادي بعضنا، يرسل بعيونه رسائل

Edit with WPS Office

نعيها ونتفهمها جيدا، نلمح بريق دمع يكمن بعيونه ،لكننا لا نشعره باننا نراها، هو طوال عمره قوي لا يحب الضعف ولا يسمح به، البيت صار ساحة زيارات مستمرة، الكل بحالة حزن ظاهر ومعلن ، تحكى عنه حكايات، استمر مرضه لسنوات، طريح الفراش دون حركة، محاطا برعاية وحب، دون أي تذمر أو إمتعاض، تغير الأب بدرجة كبيرة، أصبح غالب وقته مقيما بحجرته، يقرأ القران الكريم ، يردد الأ دعية، يقوم على خدمة الأب بكل شيء، من مأكل ومشرب، واستحمام، كثيرا ما يأخذ جانبا قصيا، يضع رأسه بحجره ويبكى كاتا ما صوته، فاضت روح الجد عند أذان الفجر، الجميع رغم انسياب الدموع كان يكبر ويبسمل، موت برعاية الأذان، بكته كل القرية، أ رخى الحزن سدوله عليها ، وكعادة الريف الأصيل، أعلن الحداد في كل البيوت، السرادق أقيم بما يليق به، أتاه الرجال من كل البلدان، كان حريصا كل الحرص على تنوع المصاهرات مع عديد من الأسر من قرى ومدن ومحافظات مختلفة ، صانعا سياجا من الروابط القوية، اكتظت طرقات القرية بكل انواع الركائب والسيارات على اختلاف انواعها، ومكانة مالكيها، ومركبات فخمة ، صواني الطعام خرجت من كل البيوت تقدم للمعزين من ضيوف القرية، يجالسهم نوعا من الترحاب بعض من وجهاء القرية، واستمرت طقوس العزاء لأسابيع .عندما هدأت الأمور، اجتمع الأبناء ودخلوا محيطين بأمهم التي خرجت تسير مستندة إلى عصاة إلى حجرة أبيهم ، أخرجت من صدرها مفتاحا، ناولته لأكبر الأبناء اللواء الشرطي (محمد منصور)، فتح درج المكتب، فإذا به بعض من مفكرات صغيرة بها يوميات أبيه، لكل عام مفكرته الخاصة التى تكون بلون مختلف عن ا لآخر إلى حد ما، بعض من خطابات أتته من أصدقاء، بعض أوراق ا تفاقات صلح بين الناس، وصور تجمعه ببعض وجهاء المديرية، وأخيرا ملفا به أوراق سميكة خضراء، اتضح انها عقود ملكية الأرض وبعض أراضي البناء موثقة من الجهات الرسمية لكل من أبنائه، ما لفت النظر عقد منفرد مرفق به مظروف، فتحه اللواء فوجئ انه عقد ملكية فدان (لثريا)، وخطاب قرأه على مسمع من الجميع .

= إليك ابنتي، وأقولها إحساسا صادقا لا شائبة فيه ، أهديك هذا

Edit with WPS Office

الفدان اعترافا وامتنانا بعطائك الذى قدمتيه دون أن نطلبه يوما،أ كرمتينا بعطائك العفوي المفعم بحب، أحييك على امتلاكك قلب زوجك وعلى تربية أولادك بشكل يجعلنا فخورين أنهم من صلبنا، ا قبلي منى هذا وسامحيني على لحظة فكرت فيها رفض هذا الزواج، لا نعرف الإنسان وأصالته إلا من خلال العشرة والتعامل الفعلي، وأظن أن الجميع يؤيدون هذا، بارك الله لك وعليك.

اغرورت العيون بالدموع ، ارتمت ثريا بحضن الحاجة (نعيمة) مطلقة من دموعها الحبيسة على صدرها، ثم قالت.

= والله والله والله لم أكن أريد شيئا، غير وجودك بيننا، أنت أبي و الله.

أخذ الأب نصيبه من الأرض الزراعية المحددة حسب العقد، وأصر على زراعتها بنفسه رغم عدم عمله بالزراعة مطلقا، ولكن السؤال وا لاسترشاد بأصحاب الخبرة ساعده أن يتحول بعد وقت قليل إلى فلا ح جيد، وحصل على قطعة أرض فضاء فوجئ بأن الجد قد كتبها له تحديدا، سبحان الله كأنه شريك أحلامه وأفكاره، أرض تقع على ناصيتين، مساحة تقارب قيراطين أرض، ابتنى عليها منزلا من ثلاث طوابق تطوقه من كل جهاته حديقة بها شجيرات زينة ، وأزهار، وبين الفراغات كان يزرع بعض الخضروات لتوفير متطلبات البيت، واستمرت الحياة تسير سيرتها كما خطط لها وكما أراد الأب ، ولكن المؤكد أنه انتهج نهج أبيه في كل شيء مع بعض التعديلات التي تواكب الزمن.

=2=

جارنا العم (إسماعيل)

==========

لم أصل وأستقر على الإجابة ، هل كنت من سعداء الحظ أو ممن جانبهم الحظ بوجود منزل العم (إسماعيل) مجاورا لمنزلنا ؟! المنزلا ن عنوان صارخ للطبقية، منزلنا من عدد من الطوابق على طراز

Edit with WPS Office

حديث، ومنزل العم (إسماعيل) مجرد بيت صغير المساحة، من طابق واحد مبنى من الطوب اللبن، وسقفه من جذوع الشجر تعلوها كميات من أعواد حطب القطن والذرة وقش الأرز، وحوافه مثبتة بـ الطين وروث الماشية، بابه وشبابيكه من غير الممكن أن تصل إلى حـ الة الإحكام التام، بهم كثير من التشققات، يقوم كل حين بمعالجتها ببعض الطين المخلوط بالتبن، يعاني الأمرين أثناء الشتاء، أتذكر أن بيته تهدم ومعه العديد من البيوت المشابهة تماما له أثناء تعرض القرية وكل الأنحاء المحيطة إلى موسم شتاء لم تعهده من قبل، عاش أسابيع في العراء حتى أعاد البناء ثانية، بعد رفضه تماما ان يقيم بأحد بيوت أهل القرية، حاول والدي مرارا أن يشترى البيت ويضمه لبيتنا، كان الرفض قرينا للرد، كان الرد موجزا،

= هذا بيت ولدت فيه ، وعشت به عمرى كله ، ثم إنه يحمل رائحة أمي التي لم أعرف لي أهلا غيرها حتى ماتت وعرفت ابن من أنا ..هي لم تلحقني بمدرسة حتى لا يعرف أهل القرية من أنا ، وأنا لم أ سألها ، ولن أغادره إلا محمولا على الأعناق.

أما سبب حيرتي فيعود إلى أن جدار حجرة نومه ملتصق تماما بجدا ر حجرتي، وكل حركة تحدث لديه أسمعها بوضوح، وأظن بسبب هذا تمت برمجة ساعتي البيولوجية على أحداث بيته، عند الثالثة تماما وقبل أذان الفجر، يبدأ بقراءة القران الكريم، صوته شجى رخيم، صوت يجلجل يهز الوجدان، يجعلك تبكى خشوعا، تنتبه كل حواسك ، يؤذن الفجر، أنهض للصلاة، وأسمعه يغادر ذاهبا للمسجد القريب، الذي بناه كبير (عائلة فرحات)، إحدى أكبر العائلات بالقرية، يعود من الصلاة ويبدأ بالتواشيح الدينية بصوت عال بعض الشيء، أحيانا أتخيله يميل ويهتز ذاكرا، أشعر به أحيانا يبكى من تغير نبراته، يهدأ بعدها ، أشعر أنه نام، أحمد الله انه لم يمارس المضاجعة حتى لا يكون سببا بتحريك نوايا الشهوة داخلي ، سمعت عنه من البعض إنه ابن لرجل كان ذا مكانةبالقرية، يمكنك أن تقول إنه كان مشروع إقطاعي، كانت والدته صبية ممن يعملون لديه بالمنزل، اشتهاها، راودها مرات ومرات، استعصت عليه كثيراً وأبت ما يفكر به، أخذها يوما بسيارته بداعي شراء أغراض من المدينة ،وعقد عليها عرفيا ف

Edit with WPS Office

ي مكتب محامي صديق هو موضع ثقه وسره، وذهب بها إلى فندق. فنام بأحضانها، وضاجعها مرات أشعرته انه ربما لم يتذوق أنثى من قبل ، عاد بها محملا بأشياء للتغطية عما حدث ، كان يضاجعها سرا وحسبما تتاح له الظروف؛ له أولاد كبار وزوجة ذات حسب، إلى أن بدأت بوادر الحمل عليها، أخذها متسترا بالظلام وذهب بها إلى بيت يملكه صديق له، استأجر منه شقه صغيرة، وأقامت بها كان يأتيها على فترات، حين وضعت حملها لم يتقاعس عن منح اسمه للمولود مشترطا عليها عدم البوح باسمه لأي إنسان حتى يجد حلا، لم يبخل عليها أو المولود بشيء، عادت بعد سنوات بيدها الابن، أشاعت أنها تزوجت من المدينة أثناء غيابها ، وأن زوجها مات فقررت أن تعود للقرية، هي كانت بلا أب أو أم، ومنذ وعت وجدت نفسها تخدم ببيت الكبير، ولم تجهد نفسها بالتفكير عن أهلها، مادامت تعيش ويتوفر لها مأكل ومشرب ونوم آمن، لا داعى للنبش بأمور قد تثمر مرا وأسى ، أستمر الأمر على حالة اختلاس اللحظات، إلى أن مرض وطال مرضه ، وأيقن أنه مودع ، استدعى أبنائه ، وحكى لهم كل شيء، ثاروا في وجهه ، لم يهمهم أنه ينازع الموت ، أصروا على طردها على الفور، منحوها بعض المال وهددوها إذ هى قالت إنها نها تزوجت من أبيهم مطلقا، مات الرجل كمدا وحزنا عليها هو أحبها فعلا، وصدم من رد فعل أبنائه الذين أعطاهم عمره ، ولم يبخل عليهم ، مات، وهي انزوت بعيدا، اشترت هذا البيت، وقامت ببيع الخضروات والفواكه أمامه لتحصل ما يسد الرمق ، وحين أحست بدنو أجلها باحت له بحقيقته، ولكنها أخذت عهدا عليه أن لا يحاول الاقتراب من إخوته حتى لا يعرض نفسه لأذى ، كانت على مدار عمرها قد اشترت خمسة قراريط أرض لزراعتها بالخضار الذى تبيعه، قبل وفاتها بعامين أصرت على تزويجه من ابنة ناس كانت عرفتهم من البيع بأحد الأ سواق (مسعدة) فتاة على قدر من الجمال ، وإن كانت ضامرة الجسد، لم تظهر عليها بعد علامات الأنوثة الناضجة، فكان كمن يختن ثمرة جميز حتى تنضج ، وقد أصبح لها صدر يلوذ إليه دوما. كان هذا اليوم هو الأول الذى يسمع فيه اسمه كاملا، لم ينتبه لتشابه الاسم مع البعض ، ولم يهتم، كانت زوجتة هادئة الطباع ، لا تنتظر أ ن يطلب منها شيئا بل تسعى إلى فعله قبل طلبه، بعد إسدال ستار

Edit with WPS Office

الليل ، بدأ النهار يعيد سيطرته على اليوم، يخرجان سويا هو يحمل فؤوسا متعددة صغيرة وكبيرة ، وبعض المناجل ، وهي تسير على بعد خطوتين منه حاملة بعض المقاطف، يخلع ملابسه، يظل ب "الفانلة" ذات الأكمام والسروال الطويلة، يبدأ عمله في الأرض، تسويتها وإزالة الحشائش منها ، وهي وراءه تملأ المقاطف ب المخلفات، يرفع على رأسها ترمي بها بعيدا ، وتفعل هذا مرات ، يجلس هو القرفصاء ، يمسك بالطين والطمي يفركه بيده في صحة وقوة ـ يحوله إلى ناعم ـ ، قال لهم يوما.

= تعامل مع الأشياء بحب لتعطيك أكثر مما تتمنى.

عند الظهيرة يجلسان تحت ظل شجرة على الترعة، تفتح صرة الطعام (خبز و وجبن قديم وبعض حبات الطماطم وفحل بصل) لا ينسى أبدا البصل، هو مؤمن أنه أقوى مضاد حيوي ضد البرد وتعب الصدر، يعاودان العمل، وعند إبداء الشمس رغبتها بالرحيل، يغتسل سريعا على الترعة ، يعاود الرجوع إلى عاداته وطقوسه المتكررة ، يترك ما يحمله وراء الباب، يسرع بهرولة إلى المسجد يصلى تحية المسجد والسنة ، يرتكن إلى أحد الجدران ويبدأ البسملة والدعاء بصوت هامس، يصلى جماعة وينصرف ليجد عشاءه معد ّ ، يتناوله يطلب منها الشاي واللحاق به على السطح، يتناولان الشاي، بعدها يتناول الناي يبدأ بالعزف. كان يجيد العزف وكأنه خريج أحد معاهد الموسيقى ، وسبحان الله هدوء كامل يحيط بالمكان ، وبعد لحظات تجد الأسطح المجاورة قد امتلأت عن آخرها من كل الفئات، رجال ونساء وأطفال كبار وصغار، الكل يسمع ويتمايل طربا، يأخذ وقتا يقارب الساعة دون كلل أو تظهر عليه أمارات التعب، ينوع العزف، وبعد ان ينتهي يجد الصغار يصفقون ويطالبونه بالمزيد ، فيفعل مرات ومرات، هو دونا يقول.

= إنه حين يعزف فكانه يعانق الحياة ويراقصها.

ينزل وقد اقترب الوقت من إنتصاف الليل، يعاود قراءة القران الكريم والأدعية، وبعدها يلقى بنفسه وينام ترتسم على وجهه كل ء لامات الرضا والصفاء النفسي، انجب ولدين (معوض إبراهيم)،

Edit with WPS Office

حاول جاهدا أن يتعلما لم تكن عندهم الرغبة، امتهنا الحلاقة تعلماها بمهارة ، وبرعا فيها ، كل منهم يحمل حقيبة خشبية بها ما يلزم يتجو لان بالحقول وبالشوارع والأزقة، يعودان آخر اليوم ببعض النقود من الذين يستطيعون دفع الأجرة مالا ، وفي الأغلب تكون أجرة الحلا قة مقابل حصة من المحاصيل.. استمرت الحياة على نمطها هذا، فوجئنا يوما بسيارة فارهة فاخرة تقف أمام بيته ، ينزل منها رجل شديد الأناقة، يطرق الباب برفق، لم يرد عليه أحد، خرج جار له أخبره أنه في حقله. وممكن يصاحبه ليدله على المكان، الجار كان يريد أن يركب السيارة الفخمة، ربما يتباهى يوما أنه ركبها، وصل إلى أرض (إسماعيل) كان منهمكا بعمله ولم يهتم بهذه السيارة الآتية من بعيد تثير الغبار بعنف، فوجئ بتوقفها أمام أرضه والجار ينادى عليه (إسماعيل)، الباشا يسأل عليك ، بهت وعلته علامات الدهشة و الخوف، أي باشا ولماذا؟، هل ارتكب مخالفة دون أن أعي؟ أفاق من شروده على صوت الرجل : حاج (إسماعيل) (عزمي) باشا منتظرك.

(عزمي باشا) من؟ لا يعرف أحدا بهذا الاسم ، ولم تكن له سابق معرفة بباشا أو حتى من يعمل معه ، تلعثم، أمسك الصمت والخرس بلسانه، فقد نسى تماماً إسماء إخوته الذين أخبرته بها أمه، على مقربة كانت تقف زوجته، ترتعش وتنتفض خوفا وهي لا تفهم ، صرخ بالرجل.

= (عزمي باشا) من؟ وماذا يريد؟

اقترب منه الرجل، مال على أذنه هامسا (عزمي باشا سليم) أخوك ، تسمرت أقدامه بالأرض، نفرت عروقه وجحظت عيونه، خبط بيده على رأسه متذكرا أن له أخا اسمه (عزمي)، ما العمل؟ مازال تحذير أمه بعدم الاقتراب منهم يسكنه، لم يبرح صدره، عاود الرجل الهمس.

= هو مريض جدا جدا، ويحتاجك على وجه السرعة.

لم يجد مفرا من الاستجابة فمعاودة المريض أمر إلهي ، طلب أن يغير ملابسه وأن يذهب للبيت ليغتسل، ركب هو وزوجته التي ا كتفت بالصمت وعدم الفهم، والجار الذى كان شبيها بطفل نال لعبة حلم بها كثيرا، ارتدى جلباب المناسبات كما أطلق عليه، وهو يضرب أ

Edit with WPS Office

خماسا وأسداسا، ماذا يحدث؟ وماذا يريد؟ بعد سنوات لا يعرف عددها يظهرون بحياته ، هو لا يتذكر ان شاهدهم وجها لوجه، رآهم مرات وسياراتهم تمرق بسرعة مثيرة الغبار على وجوه الذين تمر بهم ، لا يتذكر ملامحهم ، ولماذا الآن ، ركب السيارة ومعه مسعدة ألتي أصرت على مصاحبته رغم محاولاته الكثيرة معها ،لقد صرخت به وهي المرة الأولى التي يعلو صوتها عليه.

= قلبي لا يتحمل الانتظار، انتظر مجهولا تعود أو لا تعود، أموت بسبب قلق لا أعرف إجابات عنه.

الجيران وقفوا ينظرون لا يعرفون ماذا هناك؟ طوال الطريق وهو ينظر من وراء زجاج النافذة ، بتأمل الطريق، شارد الذهن، كثير من ا لأسئلة تجيش في صدره طوال الطريق، وهي تتمتم بأدعية تهدئ من نفسها، دخل بهم السائق إلى منطقة شديدة الهدوء بنايات شديدة التشابه شوارع متسعة نظيفة، الأضواء مبهرة، توقف أمام بناء محاط بأسوار من وراءها أشجار باسقة تخفي ما وراءها، فتحت البوابة تلقائيا، دخلت السيارة حتى باب البناية، أخذ يتجول بعينيه فيما حوله، (مسعدة) تمسك بيده بقوة، خطواتها متلعثمة، الساق تكاد تلتف على الساق، كل لحظة يمرر يده على يدها يبث فيها نوعا من الطمانينة ، وإن كان هو أيضا بحاجة لمن يطمئنه، ما هذه الفخامة التي يراها، بناء شامخ مبنى على أرقى الطرازات، كل ما يراه يدل على ثراء فوق التخيل، فتح باب الفيلا آليا، أشار إليهم مرافقهم بالدخول، كل خطوة يخطوها كانت تزيده إبهارا ، أثاثات لم يرها أو يلمحها من قبل، وهج التساؤلات يزداد داخله ماذا بعد؟ أشار لهم بالجلوس، جلسوا شعروا بأنهم يجلسون على رياش ناعمة، غطسوا بداخل أماكن جلوسهم يتمتمان بأدعية بصوت يرتد إلى داخلهم، امتد بهم الوقت، يتبادلان النظرات الزائغة، بين الحين و الحين تأتى إليهم المشروبات، تضعها أمامهم سيدة، لا تتكلم على الإ طلاق، دقات أقدام تصل أسماعهم من بعيد، رفعا رأسهما باتجاه السلم المرتفع، وجدا رجلا يسير ممسكا بعصاه يحيط به من الجانبين آخران، توقف قبلهم، قال بصوت شديد الوهن.

= أهلا أهلا (إسماعيل) شرفت.

Edit with WPS Office

رفع رأسه، أخذ يدير بصره، ربما يقصد (إسماعيل) آخر لا يعرفه ، الرجل فارع الطول، ممتلئ الجسم لحد ما، وجه مستدير غابت عنه الدموية، التجاعيد تحتل مساحة الرقبة، عينان قويتان رغم مظاهر المعاناة التي تنطق بها، جلسوا جميعا وبعد التقاط أنفاسه اللاهثة أكمل.

= إسماعيل لا داعي للدهشة والاستغراب رغم أنها من حقك، انا (عزمي) أخيك، وهذا (ماهر) وهذا (خالد) إخوتك. لك حق لأننا نسي نا انك أخ لنا بوازع من أطماعنا وتصورنا اننا نحافظ على وجاهتنا ومظاهرنا الاجتماعية، ولكننا أخطانا وتصدينا لرغبة الأب وهو يحتضر ، صحيح جاء هذا الاعتراف بعد عقود من الزمن، ولكن هذه إرادة الله، له تحديد الزمان والمكان، لن أزيد لأني كما ترى مريض وبين يدى الله، نعترف وعلى الملأ انك أخونا، نرد لك اعتبارك وحقوقك الشرعية، مضافا إليها عوائدها ومستحقاتها عن الزمن الماضي، كل ما نطلبه ان تسامحنا من قلبك الطيب الذى سمعنا عنه كثيرا، كانت أخبارك تأتينا عن قناعتك ورضائك وعفة نفسك وزهدك في الحياة، هل تقبل ان تسامحنا ؟ وتنسى قسوتنا عليك ، سوف نحاول بكل الجهد أن نعوضك ،والمعوض هو رب العالمين.

أطرق الرأس واضعا لها بين كفيه ، وأجهش بالبكاء بشدة، اهتز جسده بقوة ، لم يجد نفسه إلا مهرولا جاثيا على ركبتيه، تناول يده المبتلة عرقا ـ بفعل الزمن قبلها مرات ومرات، انسابت دموعة، خرج صوته مغلفا بالحشرجة.

= أخي، المسامح هو الله، ما حدث قرار من الله، كل شيء مكتوب في لوح كل منا بكل تفصيلة صغيرة وكبيرة، انا لا أحمل بداخلي إلا الحب لكل الناس فكيف لا أحمله لإخوتي، لم أفكر يوما في أي كراهية لكم، يكفيني الآن أني سمعت كلمة (أخي) منكم، تعادل الكثير عندي، ربنا يسامحنا جميعا، لا أريد شيئا ولا أرغب إلا باعترافكم بي أخا يحمل نفس الاسم ونفس العائلة، يا الله ما أجمل أن تستدفئ بأهلك، لا ثروة ولا سلطة تساويها، أنا اليوم ضخت الدماء من جديد بعروقي، اسمحوا لي أن استنشق رائحتكم.

Edit with WPS Office

وألقى بنفسه بين أحضانهم، وعيونهم تنطق حديثا مفهوما بدموعها. أشار عزمي لهم بالهدوء قليلا ليكمل حديثه.

= إسماعيل لقد اشترينا لك منزلا قريبا منا جميعا لتعيش بيننا ، وسوف نفتح لك حسابا بأحد البنوك نضع به ما يخصك وما يضاف إليه من عوائد، أما أولادك علمنا أنهم يمتهنون مهنة الحلاقة، لا اعتراض منا، فقط سوف نلحقهم بأكبر مركز تجميل بالبلد للتعلم ، وبعدها نفتح لهم مركزا خاصا بهم ، تعيش معنا ونعيش معك لنحاول تعويض ما مضى، هيا نتناول العشاء، وتستريحوا ، وغدا تذهب معك سيارة لترتيب أمورك بالبلد تبيع بيتك وأرضك إن رغبت ، لك حق تقرير أمورك.

= أشكركم على كل شيء ..ولكن ما يخص البيت والأرض لا يمكنني التفريط بهم مطلقا، البيت كل طوبه به تاريخ يحدثني وأحدثه كل ليلة، فكيف لي أن أخلع جلباب التاريخ؟ والأرض كانت عشقي ، اسمحوا لي لو وافقت على عرضكم أوافق لأمر وحيد هو مستقبل الأ ولاد ، فنحن جميعا يهمنا أن نجد أولادنا بأفضل حال ، وحياة مغايرة تماما لحياتنا أيا كان مستوى هذه الحياة، أوافق شريطة أن أذهب للقرية ولبيتي، وأرضي التي ممكن أن أؤجرها لآخر كلما أردت، وأمر آخر أنني لن أرتدى سوى الجلباب، الجلباب ملتصق بجلدي .فكيف أ نزع جلدي ؟.

وافقوا على كل ما قال، نهضوا لتناول الطعام، وقف في منتهي الدهشة، صنوف لم يعرفها من قبل ومؤكد لا يعرف مسمياتها.

تناولوا العشاء وهم منصتون لحكاياته تماما، حكاياته عن القرية وعن أيامه، بين ضحكات مقتضبة وأخرى صاخبة وعلامات دهشة تعلو الوجوه، أدخلوهم حجرة متسعة مفروشة بشكل فيه بذخ ، ملحق بها حمام داخلي، وقفا لا يصدقان أحداث يومهم، وجدا عباءة رجالي وأخرى نسائية موضوعة على طرف السرير، يبدو أنهم أعدوا لهذا من فترة، دخل وتوضأ شاكرا الله عز وجل ، صلى وهي خلفه ، أطال هذه المرة في الصلاة ، كرمك كثير على يا رب، لكل أمر حكمته وتوقيته ومعناه ، ألقى بنفسه على السرير الفخم، تقلب مثل طفل

Edit with WPS Office

صغير لا يصدق أن يوما يأتي وينام على سرير لم يحلم به يوما، انتا بته رغبة ملحة أن يضاجعها ولكنه قمع شهوته نحن ضيوف وما يجب علينا كسر حجب البيت، هي منذ أتت صامته مجرد عيون تتنقل هنا وهناك، استغرقا بالنوم ، وعند الثالثة قبيل الفجر وكما ا عتاد استيقظ وأيقظها للوضوء وصلاة الفجر، جلس على السجادة الوثيرة، أخذ يتلو القرآن بصوته العذب بصوت عال إلى حد ما، أعقبه بالتراتيل وبعض التواشيح الدينية ، وقف على باب الحجرة، مؤذنا لصلاة الفجر فتحت كل الأبواب، خرج من أحشائها الجميع ، كبار وشبابا وصغارا، رجالا ونساء، طلب منهم بلهجة الآمر أن يتوضؤوا ، ويستعدوا للصلاة ، وعلى النساء لبس أغطية رأس وصدر وملابس طويلة ، أخذ اتجاه القبلة ـالتي يجيد تحديدهاـ جلس حتى اجتمع الجميع، أشار إلى النساء أن يأخذن مكانا معينا، وقال صراحة.

من لا تجيد الصلاة تقلد (مسعدة)، أم ّهُم بالصلاة صوته الخاشع و العابد جعل دموعهم تنساب دون إرادتهم ، كبيرهم قبل صغيرهم حتى السيدات وأغلبهن من الطبقة "المخملية" الأرستقراطية، أخذن يجهشن بالبكاء بصوت مسموع، كلما زاد إحساسا ببكائهم ودموعهم كانت السعادة تجتاحه ،فهذا دليل على عودتهم إلى محراب الدين، وأ نهم فقط كانوا بحاجة إلى دليل، والحمد لله أن جعله دليلا لأهله، تعمد إطالة السجود والركوع ليستشعروا أن لا سلطة ولاجاه ولا م ال تبعد الإنسان عن ربه وفرائض دينه، انتهي من صلاته ، توسطهم ، رفع ناظريه ويديه وأخذ بالدعاء بصوت هز أرجاء "الفيلا" وهز معها كل الأفئدة، انتهي وأخذ يتفرس في الوجوه الملتفة حوله كل الأ بصار شاخصة نحوه ،الصمت يغلف المكان، كأن على رؤوسهم الطير بعد صمت وجيز تحدث،

= لنحمد الله أن جمع بيننا حسب مشيئته ، لله حكمته في هذا، أتمنى أن نثوب جميعا ونعود إلى معية الرحمن، نسير على تعاليم كتابه وسنة رسوله صلى الله علية وسلم، اجعلوا من قلوبكم دليلا إلى الله ، فهى خير دليل إن ابتعدنا عن الأهواء، تعايشوا مع الحياة وكل ما بها، فهي مليئة بالدروس، السماء، الشمس، الغيوم، الشجر و الطير كل هذه دروس تعلموا منها لتعيشوا صفاء وسلاما نفسيا

Edit with WPS Office

وروحانيا، لا تندهشوا إن سمعتم مني هذا وأنا الأمي الذى لم يتعلم، فالحياة هي المعلم الحقيقي، أعرف تماما أنكم كثيرو التصدق و التبرع للجمعيات الخيرية، ولكن حتى تستقيم الأمور لابد من تأدية الفروض عن قناعة وإيمان ، وبصدق ؛ لتكون البركة رفيقة الخطوات والعمل. أخي (عزمي) أدعوكم جميعا أن تأتوا أياما إلى قصركم الذي هجرتموه منذ عقود، وتركتم أمره لمن كان يعمل ناظرا على أملاككم ـ وللأمانة هو قائم بهذا العمل بضمير ومراعاة الله ، فهو معروف عنه النزاهة ـ حتى يعرف أولادكم وأحفادكم، بلدهم، أهلهم، أملاكهم، ول تستعيدوا أنتم أيضا ذكريات مضت، أتمنى أن تحققوا أمنيتي، أدعو الله أن يبارك فيكم جميعا.

نهض إسماعيل ، وأحاط به الجميع خاصة الأحفاد الشباب والصغار، لقد ملأ قلوبهم إعجابا وحبا ، الكل يقبل رأسه، أسرع الإخوة بالإ حاطة به واحتضانه مرددين.

= نسينا أنفسنا، عمانا الجشع والأنانية فما جنينا إلا عدم الراحة، عشنا رفاهية وسعادة زائفة، ولكن بحضورك أزحت كل الحجب عن الحقيقة التي توهنا عنها طويلا، سامحنا أخانا من كل قلبك لعل الله يرضى علينا!

توجهوا جميعا نحو مائدة الإفطار، رغم أنهم لم يعتادوا الإفطار في مثل هذه الساعة المبكرة، وأيضا لم يتناولوه جماعة على وجه الإطلا ق ، اليوم غير كل يوم، الأكل بشهية كبيرة، والضحكات متبادلة، إنهم أناس كأنهم ولدوا من جديد ، بمكان جديد، وطقوس جديدة ، ما إن فرغوا من طعامهم ، جلس مع إخوته في "صالون " مرفق بحجرة الطعام، تناول الأخوة القهوة كطقس يومي، أما هو فطلب كوبا من الشاي، دارت بينهم أحاديث ودودة قريبا من ساعة ، استأذنهم في الرحيل لأيام ليرتب أموره وحياته، كتبوا له أرقام الهواتف ليتصل بهم حين ينتهي وتذهب له سيارة تنقله هو وأولاده، طلبوا من السائق أن يذهب به إلى القرية، وافق على مضض مصرا على أن ت وصله السيارة فقط إلى مشارف القرية ، ويعود سيرا على الأقدام، لا يريد أن يشعر أهل القرية بحاجز بينه وبينهم، تصافحا بحرارة صادقة، كل من في البيت وقف يودعه، تمتم، سبحانك ربي ! تؤلف

Edit with WPS Office

القلوب والأرواح كأن سنوات البعاد والجفاء لم تكن، عاد إلى القرية، يجمع بين نقيضين سعادة لأن ضمائر إخوته صحت من غفوتها، وحزن لأنه سيغادر عمرا عاشه بالقرية، ولم الحزن؟ وهو مؤكد سوف يحضر على فترات متقاربه، ذهب لأحد جيرانه المقربين طلب منه ا لاهتمام بالبيت. وفي يوم آخر قام بالاتفاق مع مجاور له في الأرض بأن يتولى زراعتها وله حصته ، أما نصيبه وما يخصه فليتصدق به على أصحاب الحاجة، اتصل بهم أن يرسلوا السيارة حتى يعود إليهم ، تنتظره على بدايات الطريق، الأولاد تم إلحاقهم بأكبر مركز تجميل، أصرا على الاحتفاظ بشنطهم الخشبية القديمة تذكارا لماض عاشوه، الماضي عباءة لابد من عدم التخلي عنها، تفرغ إسماعيل لتعليم الصغار ، تعليم القرآن والعبادات، والصلاة وبعض الدروس الدينية، كان يذهب مع إخوته في وقت الصلاة إلى المسجد القريب منهم، ولم ينس أن يحضر الناي معه ، يدندن به كما كان في القرية، كان الكل يطرب لسماعه، بل إن البعض طلب منه تعلم العزف عليه، يعود للقرية كل فترة، يذهب من فوره إلى مسجد يتلو القرآن بصوته البديع ، يلتف حوله رواد المسجد، ينتشون بتلاوته، يصعد سطح بيته وبجواره (مسعده)، يعزف على الناي، كان يصر كل شهور على مصاحبة إخوته له ، يذبحون الذبائح ، توزع على الأهالي، يسير بهم بين الحقول، بل كثيرا ما كان يفرش البسط وسط المزروعات، يتناولون الطعام بشهية لم يسبق لهم معرفتها،عادت العافية إلى (عزمي), الذى كان دوما يتوكأ على عصاته، مرددا.

= حقا أنت أتيت بكل شيء جميل، حقا العودة إلى الحق مصالحة للنفس والروح، ما أجمل الحياة دون جفاء..

Edit with WPS Office

..3...

دو ّار يا زمن دو ّار..

==========

منذ سنواتي الأولى وهذا البيت يثير التساؤلات داخلي، ولكني كنت أتراجع عن إخراج ما بداخلي،أحيانا بسبب صغر السن، وأحيانا خجلا، وكثيرا خشية أن يكون تساؤلي مثار تهكم، هذا ما خيل إلي، هذا البيت الذي يقع بمدخل القرية، هذا المنزل الذي أصبح مهجورا بشكل كبير، سمعت الكثير من الحكايات ولكنها تصب في مسار واحد، كل الطرق لابد لها من المرور به، بيت متسع المساحة، تحيط به الأشجار على تنوعها حول مبنى مكون من ثلاثة طوابق، مبنى على طراز لا يوجد مثله إلا بالمدن بالشوارع التي نالت صفة حي الكبار على تنوع المعنى، الكبار ماليا ، الكبار اجتماعيا، كبار نجوم مجتمع الفن والفكر والسياسة ورجال الأعمال، على بوابته يجلس حارس لا يترك مكانه مطلقا إلا لقضاء حاجته ـ التي لا يمكن قمعها ـ حتى تنتهي نوبته ، وآخر على نفس الوتيرة مساء، المبنى مطلي بلون أبيض حتى أن بعض أبناء القرية أطلقوا عليه "البيت الأبيض" السقف مائل بشكل يمنع مياه الأمطار من التراكم عليه مزين بقرميد أحمر قاني، يتم غسل المبنى بشكل أسبوعي، الطريق أمامه مفروش بحصى أبيض صغير تعلوه طبقة رملية، اعتدنا واعتاد أهل القرية الخميس الأخير من كل شهر أن تنحر الذبائح، وتوزع على الجميع، الرجل معروف بكرمه دوما، ومعروف عنه أنه حلال العقد والمشاكل، الكل يلجأ له، هو بطبعه هادئ حكيم ، قراره دوما صائب وبموضعه، يمتلك مساحات شاسعة من الأراضي، هناك من يقول مائة فدان. وهناك من يقول إنها تجاوزت المائتين، يشرف بنفسه على كل أعمال الزراعة والحصاد، عند الحصاد يجلس على كرسيه المرتفع قليلا، بجلبابه الكشميري ، وعباءته ،قبل أن تذهب محاصيله إلى مخازنه وصوامعه، يحدد ما يقدم لغير القادرين من أبناء القرية، يكلف رجالة بالذهاب إلى بيوت معينة، يجزل العطاء للعاملين، الذين يحاولون

Edit with WPS Office

تقبيل يده، هو يرفض تماما هذا الفعل. يعود إلى دواره كما أطلق عليه أهل القرية، وهو المسمى الوحيد بالبلدة، حتى بيت العمدة لم ينل حظا بهذه التسمية، متزوج من سيدتين، إحداهما قاهرية بنت حسب ونسب، والأخرى ابنة خالته المتزوجة بالأسكندرية، لم يرهن أحد من أهل القرية، إلا العاملات بخدمتهن ، الذين قالوا دوما إنهن رائعات الجمال، هوانم بجد، حتى السائق الذى يأخذهن للمركز لقضاء حاجاتهم لا يعرف وجوههن، دوما منسدلة على الوجوه طرحة سميكة، ولا حديث يتم بينهم، ولا يمكن له أن يتنصت على أحاديثهم، أو حتى ينظر بالمرآة أو يلتفت إليهم . كان عادلا ، قالوا بـ القرية.

= إنه خلق للعدل، حين يقصده صاحب شكوى أو مظلمة أو ا ستشارة يبدي رأيه بحياد تام حتى لو كان أحد الأطراف من أهله أو إخوته.

حين كان يسير مترجلا أو ممتطيا حصانه الأشهب، كل من يمر به، لا بد من الوقوف والتحية الخالصة من القلوب بصوت عال مسموع ، الخميس الأخير من الشهر يوم ينتظره الجميع، بعد الانتهاء من نحر الذبائح وتوزيعها، تبدأ مراسم الاستعداد ليوم استثنائي ، اعتادوا عليه، تسوية الشارع أمام الدوار إضافة طبقة رملية، إعداد المقاعد و الموائد، إعداد أدوات الشواء،جهاز الراديو الكبير، طقس معد سابقا، يبدأ بالقران الكريم على إذاعة القرآن الكريم، عند المغيب تبدأ السيارات بالوفود، ماركات متعددة تنبئ عن مكانة صاحبها،جياد أصحاب أزياء مختلفة، الجلباب على تنوع طريقة تفصيلة، عباءات ، بدلات تحمل أسماء بيوتات أزياء محلية وأخرى من بلاد أجنبية، روائح تفوح من كل منهم، البعض يصطحب حريمه، يدخلن إلى البهو يجدن زوجتيه، بعد اكتمال وصولهن، يغلق الباب عليهن، لهم مفردات خاصة بأحاديثهن، الرجال يتبادلن الحديث، جماعة أو جماعات، تتداخل الأصوات، تعلو الضحكات من مقولة فكاهية ، أو الحكي عن موقف مثير للدهشة، يتم الشواء على الفحم يقوم به طهاة مميزون يتعامل معهم من سنوات، تعد الموائد بشتى أنواع الطعام و المشروبات، تستمر السهرة إلى ما شاء الله، ينصرف الجميع مودعا

Edit with WPS Office

بصدق الحب والسعادة، كنا صغارا نجلس على بعد، نسمع الأحاديث والضحكات، كان كثيرا ما يرسل لنا بعضا من الأطعمة والحلوى كان في الأعياد يستجلب سيارة نقل كبيرة محملة بملابس بقياسات متعددة، للأولاد والبنات، يرسل بها إلى بيوت بعينها تحت جنح الظلا م يذهب إلى المدارس بداية كل دراسة يطلب كشفا بأسماء غير القادرين يسدد عنهم المصروفات دون أن يسبب لهم حرجا، وكثيرا ما يبعث لهم بملابس وأدوات الدراسة، كان دوما بشوشا وضحوكا، يداعب الصغار، كنا نتعمد الاقتراب من الدوار حتى ننال حظا من عطاياه ، طعام وحلوى ، كان في المولد النبوي يجيء بالمداحين و المنشدين وأصحاب الرايات، فتنحر الذبائح وتمد الموائد وتوزع الحلوى، والأحصنة والعرائس وكل الأشكال المصنعة من حلوى المولد، أتذكر أن الكثيرين يقولون: إنهم عندما يذهبون لقضاء حاجا تهم بالمركز لدى المصالح الحكومية، ويعرفون أنهم من القرية ، على الفور يقولون.

= أنتم من بلد (محسن بيه الحمادي).

وصار الاسم الرسمي لقريتنا هو اسمه، رغم هيبته ومكانته الكبيرة الذى يشهد بها القاصي والداني إلا أنه كان عفويا، يمارس حياته دون أي تكلف، كنا ونحن صغار، نتسلق أسوار الدوار بعد المغيب، أحيانا كنا نراه يلعب مع أولاده وكأنه طفل مثلهم، يركض وراءهم يتبادل لعب الكرة معهم، يضاحكهم، لم يصنع حاجزا بين أولاده وبين أبناء القرية، بل كان يطالبهم بالخروج ومشاركتهم حياتهم، كثيرا ما كان يذهب بهم إلى ملعب الكرة، يشاهدهم وهم يلعبون ويشجعهم، حتى بنتاه لم يحظر عليهن الإنطلاق إلى الحياة بين بنات القرية، حرص على تعليم أبنائه أن لا فرق بينهم وبين الآخرين، كان بسيطا، حكى عنه من كانوا يقومون بأعمال الزراعة بأراضيه أنهم كانوا يتفاجؤون به ينزع ملابسه ويضعها جانبا، ويظل بملابسه الداخلية وينزل الأ رض، يغوص بطينها، وعندما يعترضون عليه، كان يرد عليهم.

= دعوني أستنشق الحياة، أستعيد أيامى "من ينسى أمسه لا يوم و لا غد له".

Edit with WPS Office

يشاركهم أغانيهم، كان مصدر بهجه لهم، الكل يدعو له سرا وعلانية، لا يجد في العيون أو من المواقف ما يشعره أن البعض ساخط عليه "من أحبه ربه أحبه الجميع" سارت حياته على هذا النمط ، لم يتغير مع الزمن، قمة الحب ظهر له عندما تعرض لمرض الموت وأدخل مستشفى كبرى، رغم المسافات، كانت كل الشوارع المحيطة بـ المستشفى محاطة بالمئات من أهالي القرية، البعض لم يغادر مطلقا، الأصدقاء لم يتركوه لحظة دون السؤال والحضور إليه، بل إن بعضهم بعلاقاته بأصحاب القرار أتوا بأطباء خبراء من كل ربوع مصر ، طال مكثه بالمستشفى أكثر من شهر، حتى أتت لحظة الموت، عندما وصل الخبر المحيطين بالمستشفى تسمرت أقدامهم، جحظت أعينهم، خرست ألسنتهم، وعلا النحيب، والصراخ، وخرجت القرية عن بكرة أبيها تنتظر الجثمان على مدخل القرية، القرية أفرغت ما بها والتفوا حول الدوار، وعلى المقابر وعلى مداخل القرية يعلوهم الصمت، يسودهم البكاء بحرقة، كان مشهدا مهيبا، استمر الحداد يغلف كل حياة القرية، الكل لا يستوعب الحدث، تشعر أنهم يسيرون ويتعاملون مع حياتهم وكأنهم تحولوا إلى ربوتات، جلس الأبناء بعد مرور شهور بمكتبه ،فتحوا خزينته، وجدوا أن العدل كان معه طوال الوقت، كتب لكل منهم نصيبه موثقا بالعقود الخضراء- كما يطلق أهل القرى عليها، وجدوا وصية وهى أن يظل الدوار للجميع، وأن ينهجوا منهجه، استمروا لسنوات ثم أخذتهم الحياة، ونسوا الدوار تماما،لا تجد زيارات إلا على فترات بعيدة ،أصابته الشيخوخة، و الشروخ، وذبل الشجر حدادا، وضاع لونه الأبيض، ولكن ما بقي وهو مصدر الدهشة، أن من يمر أمامه يقف تلقائيا، يمعن النظر، تدمع العيون، هكذا حال الكثير من البنايات في كل الأماكن ، يرحل ساكنيها وتتشتت بهم السبل، ولكنها تظل حاملة لذكريات لا تمحى مهما تعاقبت عليها السنوات ، البعض يتمتم ، وضاعت الهوية من بعدك.

يموت الشيخ، تموت مكتبته هكذا قالها. سنجور وأقولها أنا.

مات الشيخ وماتت معه كثير من السعادة..

=4=

Edit with WPS Office

...طائر الموت...

==========

عرفته من بدايات حبونا وثبات أقدامنا على الأرض، وظل رفيقا دائما لي، كان ابن لرجل يعمل بإحدى شركات الغزل بالمدينة الشهيرة بمصانع الغزل، يخرج بعد صلاة الفجر، يعود مع مغيب الشمس، كان يتوسط إخوته، بين سبعة أخوة هو في الترتيب الرابع بينهم، الأم ربه بيت أمية لم تتلق أي قسط من التعلم، ولكنها تتمتع بحكمة تفوق عمرها ، وتغطي على أميتها، تدير حياتها بشكل مذهل، رغم أن الفاصل العمري بين كل ابن وآخر لا يتجاوز العام والنصف. كنا سويا معا، نذهب لمكتب حفظ القرآن، نلعب ارتبطنا سويا من بدايات العمر بكل الصور، حتى طوال دراستنا كنا نجلس على مقعد واحد، هو ببيته وأنا ببيته، لا نفترق إلا ساعات النوم، لم نفترق إلا بمرحلة الدراسة الجامعية، من بدايات العمر وهو يهوى الصيد، ينهض مبكرا، يمر بي حاملا سنارته ، أتابعه ـ لم أكن أهوى الصيد ـ نذهب لإحدى الزراعات القريبة من الترعة، نحفر لاستخراج الديدان التي تستخدم طعاما للسمك، يختار مكانا يخيل له أن به ما يطمح إليه من أسماك، يظل ساعات وأنا مهمتي تتلخص بالتقاط السمك الذي اقتنصته السنارة ، ووضعه بكيس من القماش أعده هو لهذا، ننهض عند بزوغ الشمس ولهيب أشعتها يصر على صفعنا، يلقى السنارة جانبا، ثم ينزع ثيابه حتى يصبح عاريا تماما دون خجل مبررا أنه مازال صغيرا، يلقى نفسه في الترعة، وسط صرخاتي له بالخروج حتى لا يصاب بـ البلهاريسيا، ويصبح تحت رحمة حقن "الطرطير" المخصصة لعلاج هذا المرض حينها، وكم رأيت تلاميذ المدارس طوابير يصطفون بـ الوحدة الصحية وهم يأخذون هذه اللقحات ، وكم كانت صعبه على الأطفال الصغار، البكاء كان يسيطر عليهم دوما، أصرخ وأصرخ ولا مبالاة بنداءاتي، طقس يتكرر يوميا، حتى وصلنا إلى مرحلة التعليم الإعدادي، ونحن بالصف الثاني تحديدا أصيب بمرض احتار أطباء المدينة في تشخيصه إلى أن ذهب إلى الإسكندرية بتوصية من أحد الأقرباء، الطبيب صرح أنه مصاب بحمى البحر المتوسط، كانت أول

Edit with WPS Office

مرة نسمع بهذا المرض، ظل شهورا يتناول الدواء، طريح الفراش واهنا تماما لا يتحرك بسهولة، شفي بعد الكثير من المعاناة، ما أن شفي إلا وفاجأني بتغيير طقوسه إلى طقس لم أكن أتوقعه، عشق الدخول إلى المواسير المتصلة بالسواقي، يصطاد ما بها من أسماك بيديه ، وللحقيقة كان بارعا، ظل على هذا المنوال سنوات طوالا، أصيب مرة أخرى بذات المرض السابق، كانت وعكة أشد وطأة هذه المرة طلق كل هواياته الغريبة، وأخذ منهجا جديدا، عشق حلقات الذكر والدروشة، وكان يغيب بالأيام لا أحد يعلم عنه شيئا ولم يسأله أحد أين كان؟ تخرج من الجامعة، عمل بمديرية الزراعة، كان مغلقا على نفسه، رفض الزواج نهائيا قائلا لي مرات.

= أنا رجل أحمل بجسدي مرضا شرسا، أنهي على الكثير من عافيتي، ثم إحساسي ينبئني أني قريب من الموت، فكيف لي بظلم إنسانة كل ذنبها أنها تزوجت مني ؟! أرجوكم لا تكثروا الحديث في هذا الشأ ن.

وعاد يعيش حياته على منهجه الجديد، عمل حلقات ذكر ودروشة وا رتياد الموالد بكل البقاع، القرآن الكريم رفيق له دائما. الأب أضيف إلى عمره أعواما لم يعشها، ولم يعرفها، انحنى ظهره حزنا على الابن الأكبر الذى كان دوماً مصدر السعادة في البيت ، وفي كل الليالي، كان يقلد الجميع حتى نفسه بحركات تمثيلية رائعة، هو الآخر ما إن حصل على مؤهله التعليمي المتوسط وأدى الخدمة العسكرية، إلا وقد نادته نداهة السفر للعراق ضمن موجة سادت وعلت الوطن، غ البية الشباب والرجال شدوا الرحال إليها كان هذا قبيل الحرب العراقية الإيرانية بسنوات، اكتفى بإرسال حوالات مالية إلى أسرته، ثم انقطعت أخباره تماما ،هناك أقاويل كثيرة ترددت عن سبب غيابه ، قالوا إنه انضم لحزب البعث الحاكم، وأنه أصبح له شان ومكانة فيه صعب أن يتخلى عنها ، ومكاسبها وواجهتها الاجتماعية، قالوا: إ نه قتل أثناء الحرب، وقالوا، إنه تزوج إحدى بنات أصحاب القرار واشترطت عليه، أن ينسلخ من ماضية ، ويمحو ذاكرته تماما- وكان صاحب شخصية تقبل الانسلاخ - الأب زاد زهده في الحياة، ازداد ظهره تقوسا وكأنه يرسل رسالة للأرض، أنا قادم إليك قريبا، الأم

Edit with WPS Office

تقرحت عيونها بكاء، توفي الأب فجأة، جاءت الأم لتوقظه لصلاة الفجر قبل الذهاب للعمل، وجدته بلا حراك، وكان طائر الموت قد أقام عشه بهذا البيت فلم تمر سنوات قليلة إلا ولحقه صديقي، أيضا سكته قلبية، وتلاه أخوان آخران بذات طقوس الموت، عاد الأخ الأ كبر بعد غياب أكثر من عشرين عاماً بصحبته زوجة وأولادا وبعض المال، لم يعلم بما حدث لأسرته، بكى كثيرا، ولكن علام ينفع البكاء؟ الأم فقدت الرؤية لحد كبير، التحق الكبير بإحدى شركات القرية حاول جاهدا ان يعيد البهجة إلى البيت، استطاع ولكن بعد العودة بسنوات قليلة مات بنفس الطريقة، ومازالت الزوجة العراقية وأولا دها يقومون بخدمة الأم التي لم يتبق لها إلا ابنة وحيدة وبعض الأ حفاد تكتفي بما تبقى لها من بصر أن تضمهم لصدرها تشتم منهم رائحة من ذهبوا.

=5=

....أب....

==========

بحياة كل منا شخصيات كان لها التأثير القوى والداعم والمحفز بكل مراحل الحياة، وأنا هنا سوف أقدح زناد الذاكرة، وأنبش بها للبحث و الحديث عن الشخصيات التي كان لها تأثير فعلي سواء كان إيجابيا أو سلبيا علي ـ سوف أبدأ هنا بالشخصية الأولى وأظنها هي الشخصية المحورية بحياة كل منا، الأب وعندما أتكلم هنا عن أبي، أتكلم عن من وضع قدمي على العتبة الأولى للمعرفة والثقافة و التأمل، رغم قصر الفترة التي عشتها معه، كان يضعني على حجره وظل يفعل حتى بلغت الثامنة ، يقرأ صحيفته المفضلة "الاهرام المصرية" ، ومقالات محمد حسين هيكل ومحمد زكى عبد القادر و

Edit with WPS Office

أحمد الصاوي محمد ، وأسماء عديدة لها بصمة في عالم الصحافة المصرية العربية ،وآخرين من الكتاب العرب، كنت أكتفي بمشاهدة الصور بالصفحات التي يقرؤها، كان يستغرق تماما في القراءة لا يقطع حبل أفكاره وإمعانة بالقراءة، لا يشعر بأي شيء يدور حولة حتى لو كان شديد الجلبة، وكان هذا هو الدرس الأول، أن أركز فيما أ نا مقدم عليه ، وحينما تصاعد بي درج العمر كان الدرس الثاني: ا لتفاف الناس حوله والإنصات تماما وبكل الحواس لما يقال وما يناقش، ثم التمهل بإبداء الرأي والمشورة، والنطق بقرار ورأي يقنع الجميع ويصيب لب الموضوع والحدث، أي أن التفكير بهدوء وبحيادية دون أي مؤثرات خارجية يضيف في ذات الوقت تأكيدا على مكانته الاجتماعية وهيبته باحترام وإجلال، الدرس الثالث حينما استدعاني وهو يعاني سكرات الموت وعيناه زائغتان قد ذهب بريقهم الذى كان دالا على ذكاء متقد ومتوهج كان يسكنهم طوال عمره ، شد على يدى بقوة، خرجت كلماته واهنة.

= لا تبخل عن فعل أي شيء يسعد إنسانا حتى لو كلفك الكثير من الجهد دون انتظار مقابل، حتى لو كان هذا الانسان يناصبك العداء.

وهذا ما سرت عليه وكانت جائزتي من هذا هو نظرة الحب الصادق العفوي من الجميع، وكلمة تصدح وتطن برأسي وما أعظمها من جائزة الثراء الحقيقي ليس ثروة أو سلطة، الثروة ذكرى محمودة عطرة تستمر مع أجيال كثيرة "الورود لا تنبت شوكا".

=6=

..الجد.....

==========

لا تندهشوا أني لم أجعل الجد مؤسس العائلة أول الشخوص، ربما لأ ني لم أره رغم أني سمعت الكثير من الحكايات عنه، جدى رحمه الله ، قاد الرحلة من موطن عاش فيه لسنوات كثيرة إلى وطن جديد وناس جدد، وهو أمر جد مجهد أن تبدأ من جديد، ولكنه بحنكته ا ستطاع بالقليل من الجهد ومن الوقت أن يدخل في نسيج الموطن الجديد والبشر الجدد، أن يحتل مكانة مرموقة داخل عقول وقلوب

Edit with WPS Office

أهلها بحكمته وبكياسته وفطنته وبالمشاركة في كل شيء فيها ، وإبداء الآراء الصائبة التي تعلي من قيمة القرية وأهليها ، جاء إلى مجهول حاملا داخل أرديته كل ألوان الخوف والحذر والمسئولية عن أسرة كبيرة تسير بركابه وتأتمر بأمره، ولكن كانت بداخله فكره، وعندما وصل إلى الموطن الجديد، لم يأخذ وقتا طويلا ليغرسها ويتعجل ثمارها، شهور وقرر أن يرتبط بوشائج مصاهرات بغالب عائ لات القرية، وهو أمر سار على نهجة الكثير فيما بعد، حكمة جعلته جزءا عميقاً وراسخا بنسيج القرية، حكوا لي عنه أنه كان يتزوج من أرامل لا تساعدهم ظروف الحياة على توفير أقل القليل من سبل الحياة، نوعا من الرعاية والتكافل الاجتماعي بشكل فيه كرامة إ نسانية، وضع داخل كل أبناء العائلة بعض الرواسخ من القيم والأ عراف تجعل قافلة الأيام تسير.

= "سيروا حاملين العطاء، سيروا وأمام أعينكم الله، سيروا وأمام أبصاركم حياة أجيال قادمة لابد أن نبتعد بها عن المشاحنات و المجادلات، سيروا وأمامكم تسير قلوب وعقول بيضاء نقية متفتحة تسير بركاب الحياة مع عدم تجاوز خطوطها الحمراء" هكذا كان ميثاقه، وهكذا مازالت العائلة تتبعه، الجد عمود الأسرة، إن كان حكيما نالت أسرته الحظوة والمكانة والحب بشتى ألوانه، الجد راسخ بدواخل كل الأبناء ..

=7=

خطوة أولى

==========

* هناك أمر لا يحتمل الجدال فيه، وهو أن الكتاتيب التي كانت منتشرة بوفرة بكل القرى والعزب والنجوع، والتي لا أعرف حتى الآ ن سببا لتراجعها، رغم أنها ـ وهو أمر تعترف به أجيال كثيرة ـ أنها كانت اللبنة الأولى والأساسية في وضع الأطفال بنوعيهم على أولى درجات السلم التعليمي، كانت تعلمهم مبادئ الكتابة والقراءة بالإ ضافة إلى العنصر الأهم والذى أقيمت من أجله، تعلم القرآن الكريم

Edit with WPS Office

وقراءته وتفسير آياته، وما يجعل الأطفال يدخلون إلى المراحل التعليمية اللاحقة لديهم قدرة على الفهم بسلاسة لما يتلقونه من علوم وبتمكن من لغتهم العربية، ولا أنسى هنا "العريف" وهو لقب يطلق على القائمين على إدارة هذه الكتاتيب، ولا أدرى أيضا سببا لهذه التسمية "العريف " الذى تعلمت عليه كان على هيئة غير ا عتيادية ، المتعارف علية من هيئات من يطلق عليهم لقب "عريف" المتعارف عن هذه الفئة انهم يتمتعون بتكوين جسماني ضخم و صوت جهوري وشده أو بالأصح غلظة وخيرزانة طويلة ، تطول من يجلس بآخر الجلسة إن حدث أي خطأ، كان نحيلا قصير القامة و خمري البشرة، يجلس أرضا وسطنا وليس على ارتفاع مثل الأخريين ـ نوعا من التبسط والتقرب من الأعمار الصغيرة. يتلو القرآن بصوته العذب الخاشع، نردد وراءه بتمعن ودقة، كان بشوشا أثناء الا ستراحات يحكى لنا حكايات متنوعة ويضاحكنا ويداعب كل منا بما يروق له، كان المقابل نقودا يرتضيها، يتناولها من الآباء ولا يحصيها، يضعها بجيبه على الفور والغالب أن المقابل كان حصة من المحاصيل وقت حصادها، وكان أيضا قارئا للقران بالمناسبات، أعترف بعد مرور سنوات العمر أن له الفضل علي في حب اللغة العربية وتلاوة القرآن ، ومازالت تلوح أمام عينيي صورتنا ونحن صغار نهرول معلقة برؤوسنا "مخلات " مصنوعة من أنواع شتى من الأقمشة بها جزء من القرآن ولوح وطبشور نكتب بها، مازالت هيئته شاخصة أمام بصري ، عند وفاته بكاه الجميع كبارا وصغارا، وربما للمرة الأولى وأظنها الأخيرة التي تقوم مدارس القرية بإعلان الحداد بشكل تلقائي عليه ليقينهم أنه قدم لهم أجيالا معدة جيدا للفهم و التحصيل، رحمه الله.

=8=

....حادث....

==========

لم يفترقا منذ الطفولة، معا في كل أمر، في البيت وفي الحقل، لم

Edit with WPS Office

يجنحوا للتعلم، جذبتهم الزراعة وأعمال الفلاحة منذ الصغر، أن أردت أن تعرف أين أحدهما فابحث عن الآخر، يكادان لا يفترقان إلا ساعات النوم، حتى عندما أرادا الزواج أصرا على أن يكون زواجهم وزفافهم في ليلة واحدة، اليوم في حقل أحدهم والغد في حقل الآ خر، حتى الزوجات والأبناء كانوا معا ! كثيرا ما تجد إحدى الزوجات تأتى "بصينية "عليها صنوف من الطعام، ويجلسون جميعا حول "الطبلية" هنا أو هناك يتناولون طعامهم وسط أجواء سعيدة ومرحة ، حتى السهرات التي كانت تجمعهم بدكان القصب والبوظة دوما معا ، عند الإنجاب سمى كل منهم الذكر الأول له على اسم الآخر، حتى لون الملابس واحدة، الخلاف الوحيد بينهما أن أحدهم طويل القامة لحد لافت للنظر ذو شعر ناعم يتطاير مع أي نسمة هواء، عريض المنكبين وخمري البشرة، والآخر متوسط القامة، شاهق البياض، عيونه فيروزية وسيم للغاية. سنوات طوال لم يعرفا الاختلاف مطلقا، كانوا سر بعض، ومشورة بعض، كل منهم سند الآخر، حتى أن أهل القرية أطلقوا عليهم (التوأم)، سارت بهم سنوات العمر على مسار واحد لا يعرف التعرج، حتى جاءت اللحظة التي لم تكن بـ الحسبان، بأحد الموالد التي تقام احتفالا بأحد أصحاب الأضرحة بـ القرية، جاءت فرقة مغني ورقص، كانت الراقصة الأولى بها شديدة الجمال، جمال لم تعرفه أو تشاهده القرية من قبل، شدت الأبصار و القلوب من الكثيرين، أصابت الكثيرين بنوع من الهوس بها، تبارى الكثير بإظهار مواهبهم، هناك من أتى بطعام وهناك من شاركها الرقص والغناء، وهناك من منحها نقودا سخية وهناك من همس لها بوعد الزواج، كانت تنظر وتعلو شفتاها شبح ابتسامة شاحبة ساخرة، فكم من المرات شاهدت وتعرضت لهذا، هي تراها تصرفات صبيانية، وتتفاعل مع الجميع ولا تسمح لأحد أيا كان أن يلمس حتى ملابسها، الشرف رأس مالها، حقيقة تعيش وسط فئة ينظر إليها الجميع على أ نها فئة ماجنة ، والنوال منها أمر سهل، رغم أنها لقيطة لا تعرف لها أبا أوأما، ولم تسأل يوما من هي ؟ مادامت تأكل وتشرب وتنام وتحافظ على عذريتها وشرفها، فلم تشغل بالها بأشياء لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تعرف إجابات صادقة لها؟ لفت نظرها هذا الشاب الوسيم الهادئ، ورغم أنه يجاور شابا بنفس العمر أرعن ينتفض واقفا،

Edit with WPS Office

ويصرخ مهللا يوجه كلمات الغزل الفاحش بلا حياء،ثم يعود للجلوس لالتقاط الأنفاس، وزميله لم ينطق حرفا ، فقط عيونه مثبته عليها، لا تعرف لماذا تسارعت دقات قلبها، هذه أول مرة تشعر بهذا، أرادت أن تذهب إلى مكان جلوسه وتناوشه، تسمرت قدماها و ارتعشت رقصاتها وانساب العرق غزيرا من مسامها، سبحان الله عندما يوجه الأفئدة دون سابق تعارف أو تلاق تكون التلبية واجبه ، كان لابد لها أن تقرر قرارا، أشارت لأحد الصبيان الذين يشاركونها ، ولديه ثقة عندها، مالت عليه وهي تتراقص همست له وأشارت بعينيها إلى الوسيم، الصبى أشار إلى عينيه معلنا تلبيه ما أمرت به، ا قترب منه.

= مال عليه، همس له مشيرا إليها(نوجا) تريد أن تراك بعد ساعة وراء المضارب الخاصة بهم.

ارتفع حاجباه دهشة، لم يجد كلاما يرد به عليه، اكتفي بهز رأسه ـ لا إراديا ـ موافقا، وبعد انصراف الصبي لام نفسه، لماذا وافق ؟ ليس من طباعه ومن دينه أن يلتقي سيدة، لم يفعلها من قبل لماذا وافق؟ همس في نفسه، الأمر لله ، مال صديقه الدائم (معوض) على أذنه يسأله.

= ماذا كان يريد منك؟

=كان يريد منى لقاء (نوجا) الراقصة، ولا أعرف كيف وافقته.

علت الدهشة وجه (معوض) وتسأل،

= لماذا وأنت لم تنطق بكلمة واحدة ولم توجه لها أي كلام لا غزلا و لا غيره.أجابه.

= لا علم لى، سوف نذهب ونرى ماذا تريد؟

بعد مرور الساعة ذهبا إلى حيث تنتظر، وجدوها جالسة على الأرض تحتوى قدميها بين يديها، نهضت عندما انتبهت لحضورهما، تنتظر انسياب تساؤلاته، بدأت الحديث على الفور.

= لك حق أن تستغرب وأن تندهش وأن تظن بي الظنون، فمن مثلنا

Edit with WPS Office

في نظر الكل إلينا أننا خلقن لإغراء الرجال وسلب أموالهم وفقط ، لك أن تتساءل ماذا تريد منى هذه الغازية؟ أجيبك أنا، أنا لا ذنب لى أني وجدت نفسى من بداية أيامى أعيش وسط أناس ظننتهم أهلى أب وأم وإخوة، أناس وجدتهم يتنقلون بين الأيام، هنا وهناك، يمارسون الرقص والغناء في الموالد وفي الشوارع أحيانا جلبا لمال يعيشون به، لم أعرف أني لست ابنة لهم إلا من سنوات قليلة ومن إحدى نساء عائلتهم، إنهم وجدونى وأنا في الثالثة أو الرابعة من العمر، تائهة بأحد الشوارع أبكى، أخذونى وعلمونى حرفتهم ومعيشتهم، ولكن رغم معيشتى معهم سنوات إلا أنني كنت أشعر أن طباعي ليست من طباعهم حتى في طريقة الكلام، هم بهم غلظة وعنف واندفاع وتهور، وأنا ـ ولا أزكى نفسى ـ هادئة جدا، يزعجنى الضجيج، والأصوات العالية، عندما يحدث هذا أنزوى جانبا وأسد أذناى وكثيرا ما أبكى، بداخلى ومن زمن بعيد منذ أن كنت في العاشرة صوت وصراخ عالي ، ابحثى عن عالم يبعدك عن عيون تعريك ملايين المرات، وتنهش لحمك وتشتهيك، لا تستغرب من كلا مى، الأيام وما مر بى من مواقف علمتنى الكثير، الدنيا تعلمك أكثر من أي شيء آخر، أعطتنى قدرة وبصيرة لمعرفة البشر لحد كبير، بداخل كل منا نوع من الموهبة يزرعها رب العالمين داخل البشر ويترك لهم معرفتها والبحث عن الوصول لها والإصرار عليها وإظهارها، وهذه ملكتى أني أقرأ الوجوه وأخمن مكنونها، منذ أن رأيتك أحسست إنك سبيلى لتلبية النداء الذى ينتابنى دوما، أنت بك نورانية شديدة وأجزم أنك قريب من الله، لم تعرف أي نوع من العبث، ولم تمش وراء شهوتك يوما ما، أنا لست رابعة العدوية أو شفيقة القبطية، أنا إنسانة أتمنى أن أعيش حياة طبيعية أعمل عملا يبعدني عن هذه الحياة التي تضج وتنضح بالشهوات والغرائز، أنا حمدا لله لم أسمح مطلقا لأحد يفكر في لمسى أو قول يخدش سمعتى، باختصار أحتاج الأمان والحماية مما قد أواجهه يوما كرها عني ودون إرادتي، هل أجد منك المساعدة؟ على فكرة أنا لا أريدك رجلا أريدك إنسانا وأخا يحمى أخته، لست ممن يخرب البيوت لا و الله أريد أن أعيش النقاء والطهر، ألا يقولون إن لله جنوداً مجنده أنا أراك من هؤلاء الجنود، سكتت وأنسابت دموعها وسكتت تنتظر

Edit with WPS Office

بعيون بها الكثير من التوسل والرجاء.

الدهشة ملأته وتلجم لسانه ، لم يسمع كلاما كله حكمة من أي امرأة بـ القرية، احتار بماذا يرد؟ وجد نفسه بحالة شرود تماما، زائغ البصر و الفكر، فجأة تفتق ذهنه عن فكرة.

= العمدة كبير القرية مؤكد عنده حل.

ولكن قبل أن يقدم على هذه الخطوة سألها.

= ماذا عنهم؟ أقصد من تعملين معهم،د هل يسمحون لك بتركهم؟ لا أظن.

= بل أكيد صعب؟ ولكن لو اختفيت عنهم فترة سوف يغادرون ، هم دوما يرحلون حيث الموالد، وإن وجدوا من يكون قادراً على ردعهم لا يستطيعون فعل شيء.

هز رأسه مؤمنا، (معوض) يجلس صامتا بداخله فكرة قمعها للحظات، ثم أطلقها من جوفه.

= (طالب) ما رأيك لو تزوجتها؟ أليس هذا حل؟

نظر إليه بدهشة وتجهم وصرخ به.

= ماذا تقول، ألا ترى أن هناك الأهم ثم هل نسيت أنك متزوج وعندك أولاد ؟ أمجنون أنت؟

قاطعته.

= أنا أبحث عن أمان وهدوء، انا لم ولن أفكر على الإطلاق في هدم بيت لبناء بيت لى، اخى أنا لا أغادر عالم به الكثير من الألم بحثا عن وجع أكبر.

ربت طالب على كتفها بهدوء وطلب منها المسير معهم، سارت خلفهم لدقائق دون أي تساؤل، (معوض) يسير موغر الصدر، يزفر بشكل دائم زفرات حارة أخفاها داخله، كان يود لو أن صديقه قد ساعده في الحصول على هذه الأنثى التي لاتشبه نساء القرية، وخاصة زوجته التي تزوجها إنصياعا لطقوس وعادات العائلة وغالبية عوائل القرية لا فرار من هذه الطقوس، طرق باب دوار العمدة، فتح أحد

Edit with WPS Office

الخفراء، أخبره (طالب) أنه يريد حضرة العمدة لأمر خاص وهام، لم يرد عليه فقط شملهم بنظرة فاحصة من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وكان نصيب الأسد من نظرته إلى هذه المرأة التي يعرف أنها ليست من نساء القرية، أفسح لهم الطريق داخلا بهم إلى حجرة "السلاحليك"، أشار لهم بالجلوس على أريكة خشبية مهترئة لحد كبير، وخرج ليخبر العمدة، وقد جلس خفيرين آخرين أمامهم أكواب من الشاى شديد القتامة، يتناوبان على نفث الدخان من أرجيلة من الصاج على حوافها بعض الصدأ، وبوص من الغاب ، ينفسون دخانها غير آبيهين بالحضور، حتى السلام لم يلقوه أو يردوه حين ألقى عليهم، اكتفوا بالنظر إلى المرأة، وسؤال ينهش دواخلهم من تكون؟ مضى وقت ليس بالقليل، حيث أتى العمدة بقامتة الفارعة الطول، ممتلئ الجسد لحد ما، خمري البشرة، أتاهم مرحبا متسائلا.

= خيرا يا(طالب)، خيرا يا (معوض) ثم وجه بصره إليها سائلا من هذه؟

مال عليه طالب هامسا.

= نريد أن نجلس معك على انفراد.

لم يقل شيئا، سار أمامهم إلى حيث صعد درجات السلم المرتفع المؤدي إلى المقر السكني، بالمدخل بهو كبير به أماكن للجلوس، كنبات بلدية مفروشة بشكل يناسب صاحب المنصب وضيوفه الذين لا ينقطعون عنه أبدا من أعيان القرى المجاورة والمركز ومسئولي الشرطة دائمي الحضور، أشار إليهم بالجلوس، نظر إليهم نظرة بها ذات السؤال الذي ألقاه عليهم عندما أتاهم، تكلم (طالب).

= هذه (نوجا) تعمل مع الغجر الذين يرقصون ويغنون بالموالد، اسمع أنت منها يا حضرة العمدة، وأشار إليها بالحديث. عاودت حكى حكاياتها وأضافت انها ترغب في حياة مغايرة لعملها، وأن تستقر بدلا من تنقلها بين البلدان، يوم هنا ويوم هناك، وتعيش بين جدران آمنه بدلا من الخيام منزوعة الستر، وأنها تطلب منه الحماية ، واعتبارها ابنة من بنات ونساء القرية المسئول عنها.

انتهت من كلامها وسط انصات كامل من العمدة الذى وضع إصبعين

Edit with WPS Office

أسفل ذقنه منتبها تماما لكلامها ـ شرد قليلا ثم قال.

= أنتم تعلمون جيداً أني لم أنجب إلا بنات وتزوجن ونعيش أنا و الحاجة وحدنا، يقوم الخفراء وبعض من زوجاتهم بخدمتنا وأفكر بما سمعت، ولدى فكرة نجعلها تدخل إلى الحاجة المشهور عنها فرز الناس جيدا ولنرى ماذا تقول؟ إن وافقت تعمل بخدمتنا ، وإن لم توافق لنبحث عن حل آخر ربما نزوجها لأحد شباب القرية يكون رجلا قادراً على حمايتها، عند تلفظه بلفظ الزواج، اندفع (معوض) ممسكا بالفرصة.

= والله يا حضرة العمدة أنا قلت هذا، وعرضت أن أتزوجها أنا.

لم يكمل كلامه حتى نهضت منتصبة وموجهة الكلام لهم.

= أنا قلت لن أتزوج برجل متزوج، لا أريد أن أكون سببا في هدم بيت ، وكيف تعرض هذا وأنت لم تعرفنى إلا من قليل، تحت أمرك يا عمدة.

نظر إليه العمدة نظرة استياء، طلب منها الدخول معه إلى الحاجة، دخلا إليها بحجرتها ، سيدة مازالت علامات وملامح الجمال مرسومة على محياها، بيضاء ذات جسد متناسق، أخبرها العمدة بما قالته الفتاة وأوضح لها أن تتحدث معها وتخبره رأيها.

رحبت بها أجلستها بجوارها، ربتت مرات عليها، أخذت بالحديث معها وسؤالها بالعديد من الأمور، وقت طويل وهم بانتظار، جاءهم صوت الحاجة.

= يا حاج يا حاج.

هرع من فوره إليها أشارت إليه بالجلوس.

= يا حاج البنت بنت ناس، صاغ سليم أقسمت لي أنها لم تسلم نفسها لأحد حتى باللمس، بل طلبت أن أتحقق من هذا بما أراه، (نجاة أو نوجا) واضح من كلامها ومن طريقتها أنها فعلا لأسرة فقدتها من زمن بعيد، تصرفاتها وحركات جسدها تقول إنها لا تنتمى للغجر، فقط القدر دفع بها إليهم، الحقيقة وباللحظات التي تكلمت معها، ارتاح لها، قلبى لم يتخوف منها هي هدية الله لنا، أرجوك يا

Edit with WPS Office

حاج اجعلها في حمايتك ولتعمل عندنا، ما عليك ـ منعا لأي مشاكل مع الغجر ـ إلا أن ترسل لكبيرهم وحادثه وأعطه بعض المال واذ ْه ِ الموضوع بحكمتك وبالود لتنهى الأمر.

= حاضر يا حاجة على بركة الله.

، خرج إليهم وأخبرهم بما تم شكره (طالب) كثيرا وحمد الله في سره هامسا

: الحمد لله الدال على الخير كفاعله.

انصرف (طالب) مرتاحا وهادئة ومنتشيا. لأنه كان فاعلا للخير، (معوض) مراجل الغضب تعصف به، وجه اللوم كثيرا وبعنف يصل ل لاتهام لصديقه، الذى عاود تعنيفه وتذكيره بأسرته التي هي أحوج له ورعاية، لم يعجبه الأمر وأشاح بيده ثم هرول عائدا إلى بيته الذي أغلق بابه بعنف، العمدة أرسل أحد الخفراء إلى كبير الغجر الذى أتى مهرولا خشية أن يكون حدث أمر ربما يتسبب في طردهم، جلس بين أيدى العمدة تصتك مفاصلة، لم يهدأ إلا عندما مد له العمدة يده بأوراق مالية توازى عمله بعشرات الموالد، وافق على طلب العمدة ب النسيان تماما (لنجاة) ونسيان مروره بهذه القرية على الإطلاق، وعده وانصرف ناسيا لما مر من عمره، يكاد يرقص غير مصدق بأنه يحمل مثل هذا المبلغ، استقرت (نجاة) بالعمل بدوار العمدة وبعد أيام قليلة اكتسبت ثقة ومحبة "الحاجة" وبناتها، أثبتت مهارة فائقة بأعمال المنزل، أضافت نوعا من الحياة إلى أروقة البيت. (معوض) جن بها، يجلس بعيدا عن دوار العمدة كل يوم يراقب خروجها إلى السوق لقضاء احتياجاتهم، يتناولها غزلا يجمع بين العفيف وغيره، مرددا مرات طلبها للزواج، كررت له رفضها، احتد عليها مرة ، وأقسم لها أنه سيتزوجها حتى لو رغما عنها، بكت وهرولت عائدة إلى الدوار ، ألقت بنفسها داخل أحضان الحاجة، حكت لها، طلبت العمدة و أعادت القول عليه، أرسل من فوره من يجيء (بمعوض) (وطالب) ـ الاثنان واحد. أتيا على وجه السرعة (معوض) يعرف سبب الدعوة و(طالب) مندهش منها ، ولكن يجول بخاطره هاجس أن السبب يعود إلى (نوجا) دخلا إلى (السلاحليك) وجدا العمدة جالساً مكفهر

Edit with WPS Office

الوجه، لم يمنحهم فرصة لالتقاط الأنفاس أو حتى للجلوس وصرخ (بمعوض)، ممسكا طوق جلبابه.

= لماذا أنت مصر على أفعالك الصبيانية؟ لماذا تتعرض لنجاة كل يوم؟ توجه لها كلاما لا يليق برجل إن كان فعلا رجلا، ألا تعرف أنها أصبحت من أهل بيتي؟ لماذا هددتها اليوم أنك سوف تتزوجها كرها ورغما عنها ؟ لم تضع بحسابك أنها تعمل لدي، فلت عيارك وجننت وفقدت عقلك ؟ ونسيت أنك زوج وأب ؟ ثم هي قالت لك إنها لن تتزوج من رجل متزوج، حتى وإن تهورت وقمت بطلاق زوجتك، لن تتزوجك . من الآن لا تعترض طريقها ولا توجه لها أي كلام ومن أي نوع مفهوم؟ .

استدار إلى (طالب).

= هل عندك علم بما فعل؟

هز رأسه نافيا وهو لا يستطيع الكلام، فما قاله العمدة أصابه بـ الدهشة، نظر إلى صديقه نظرات لوم وغضب ، انتبه على صوت (معوض).

= سوف أتزوجها رغما عن الكل ، ولن تكون لأحد غيرى، أنا حر و ليس لأحد دخل بحياتى .

استدار مغادرا مع إشاحتة بطول ذراعيه للجميع، صرخ به العمدة.

= قف ، قف لا تغادر إلا إذا سمحت لك.

لم يستجب، نظر العمدة إلى خفرائه نظرة متعارفا عليها، أسرعوا إليه أمسكوا به، أخذه اثنان منهم بين صدورهم، أصبح ظهره بمواجهة العمدة الذى أخذ خيرزانه طويلة من أحد الأركان وأخذ ينهال بها ضربا عنيفا متتاليا وسط صرخاته وتوسلاته ، وتوسلات (طالب) بتركه والوعد بأنه لن يعود لهذا الفعل ثانية، كان قد صم أذنيه وزاد من ضرباته، تركه بعد كثير من الرجاء من الكل، أمر أحد الخفراء بحمله مع (طالب) الذى انهمرت الدموع من عينيه حزنا على صديقة، سار به قدماه تزحف ترسم خطوط على تراب الأرض، المسافة طويلة إلى بيته ، والنظرات تحيط بهما والتساؤل عن

Edit with WPS Office

السبب؟ بل إن البعض تساءل بالفعل، أدخلاه إلى حجرته وسط بكاء وصراخ الزوجة والأولاد دون فهم ما يرونه،، وضعوه على سريره المكون من كنبتين من الخشب عليهم ما يشبه المرتبة متهرئة تماما، مازال يتوجع، جلس بالقرب منه، وجه له الكلام.

= لماذا كل هذا؟ تهين نفسك وكرامتك من أجل ماذا؟ نزوة وشهوة ، انتبه لنفسك والأولاد وبيتك ، أمامك مشوار طويل، استعن بربك وتجاوز وانس، صن كرامتنا نحن واحد لا اثنان، تسمعني.

نظر له نظرة لم يفهمها وصرخ به وسط الوجع.

= أنت وليس غيرك من أخبر العمدة، من اليوم لكل منا طريقة ، انس أنك عرفتني تماما، اخرج، اخرج .

لم يجد ما يرد سوى أن يأخذ الطريق ، وينصرف، حاولت الزوجة معرفة ما حدث؟ أجابها.

= ادخلى له واسأليه لعله يقول لك!

الشيطان وجد له مسكنا برأس (معوض) الشيطان دوما ينتهز لحظات الضعف لدى أي انسان، ويزيد من الوسوسة والتحريض، ينجح مع الضعفاء الذين لا يملكون إرادتهم، وهذا ما حدث، أسلم قياده تماما لوسوسة الشيطان، لم يعد يطيق زوجته وأولاده ، وهجر زراعته، قرر أمرا ساعده شيطانه على ترسيخه بداخله، كان يعرف تماما أن صديقه يصلى صلاة الفجر، ويظل جالسا للدعاء بعض الوقت، حتى يفرغ المسجد تماماً من رواده، في هذا اليوم المشؤوم، ذهب للصلاة ، ووقف بصف بعيد عن (طالب) ، انتهت الصلاة، (ط الب) ركن ظهره إلى أحد الأعمدة، وأخذ يدعو ويبتهل، انفض المسجد من المصلين تماما، انتهى من دعائه ونهض للخروج، وصل إلى باب المسجد، مال يتناول مداسه، في هذه اللحظة انهال عليه طعنا ، سقط أمام الباب مضرجا بدمائه يئن، لم يطل الأمر كثيرا لفظ أنفاسه الأخيرة، (معوض) بعد الطعن هرول حافيا يبحث عن مهرب، اختبأ بين زراعات الذرة بأحد الحقول البعيدة، عندما طلت بوادر

Edit with WPS Office

الصباح لمح الأهالي جثة (طالب) علا الصراخ واللطم ، وهرول الناس، تم إبلاغ الشرطة أتت السيارات وانتشر الجنود محيطين بـ المكان، أكد الجميع أن (طالب) لم تكن له أي عداوات مع أحد، وجد حذاء ملطخ بالدم على مقربة من الباب ، لا يناسب قدمي القتيل بالإ ضافة إلى حذاء القتيل ، حينها تفتق ذهن أحد الضباط عن فكرة، طلب إحضار بعض الأطفال من عدد من الأماكن، أتوا إليه بعشرة من الأطفال الصغار صفهم أمام مكان وجود الحذاءين وسألهم.

= من يعرف أصحاب الحذاءين؟

تبادل الأطفال النظرات ببلاهة الطفولة، لحظات اندفعت فتاة صغيرة بعمر السادسة ، وصاحت مشيرة للحذاء المغاير للحذاء غير المناسب القتيل.

= هذا حذاء أبى.

= ومن أبوك ؟

=(معوض البلحي).

على الفور أمر العمدة بإرسال الخفراء بمصاحبة الجنود للبحث عن (معوض) طال بحثهم دون جدوى، أخذوا طريق العودة، أسرع نحوهم طفل في سن العاشرة، مشيرا اتجاه أحد حقول الذرة.

= رأيت من ساعة رجلا يجرى متلفتا خلفه يدخل هنا ، ولم يخرج من لحظتها.

أسرعوا وأحاطوا بالحقل من كل جوانبه، دخل البعض بحثا عنه، وجدوه جالسا القرفصاء واضعا رأسه بين يديه ينتفض جسده رعشة وبكاء، ويهذى بكلمات.

= قتلتك يا خويا، قتلت نفسي معك ، أه أه ، تاه عقلي فتاهت خطوتي، وتعثرت قدماي ، بدلا من أخذه بحضني وأرتمي بحضنه ، وأعتذر عن سوء ظني ، نسيت عمرنا كله، عشناه سويا على (الحلوة والمرة) وكنا واحد، اعدموني لا حياة لي بعده ،أه أه ، وأخذ يتمرغ على الأ رض مرات ومرات، أخذ يضرب رأسه بيديه بقوة مفرطة،وتم الإ

Edit with WPS Office

إمساك به، أخذ مجرورا جرا إلى مكان الحادث، كل القرية بالمكان، البكاء متصاعد من النسوة وبعض الرجال، أركبوه السيارة إلى مركز الشرطة الذي تتبعه القرية، أتت سيارة إسعاف لحمل الجثة إلى المستشفى لإجراء التشريحات ومعرفة أسباب الوفاة، أسرع خلفها الحاج (صبحى عجلان) كبير عائلة (طالب) حيث خاطب كل المسئولين طلبا لعدم تشريح الجثة اكتفاء بمناظرتها، وافقوا بعد تدخل بعض أصحاب الحيثية النافذة، وعادت الجثة وتم دفنها وسط مشهد مهيب، بكاه الجميع، أغلقت على نفسها الحجرة تلطم وجهها بعنف شديد، أحياناً تضرب رأسها بالجدار، تصرخ بأعلى صوتها.

= أعطيتني الستر وجلبت لك الموت، يا ويلي، ستظل حسرتي عليك الى آخر يوم من عمري، سامحني لو كنت أعرف ما كنت جئت إلى هذه القرية ولكنها الأقدار.

ظلت على هذا الحال وقتا طويلا، حاولت الحاجة وبناتها التهوين عليها وأن الموت مصير كل حي ،وتعددت الأسباب والموت واحدة، عادت إلى طبيعتها بعد وقت طويل، ولكن ضاعت منها بهجتها وروحها التي كانت تشع الفرح في كل مكان.

أصر الحاج (صبحى) على إقامة سرادق كبير للعزاء، أتاه من كل البلدان المجاورة، في الأيام التالية سعى إلى جمع عدد من كبار العائ لات لإجراء صلح بين عائلة (عجلان) وعائلة (البلحي) التي ينتمى لها (معوض)، وجه شباب العائلة وبعض رجال العائلة اللوم له، رد عليهم.

= ما أسعى له ليس ضعفا، بل هو منتهي العقل، حرصا عليكم، لو سرنا على هواكم لن نجني إلا بحورا من الدم، قتيل هنا وآخر هناك ، وهلم جرا، الأيام سوف تثبت لكم صواب ما فعلت.

بعد مرور الأربعين عقدت جلسة ضمت غالبية كبار العائلات وبعض حكماء القرى المجاورة، بعد نقاش وتداول الاقتراحات تم التوافق على تنازل عائلة (البلحي) عن مساحة فدان أرض أو ما يعادله مالا إلى أسرة (طالب)، ولكن فوجئ الجميع بنهوض الحاج (صبحى) قائ لا.

Edit with WPS Office

= بل نرتضي بنصف ما قررتم، المرحوم ابننا والفاعل ابنا أيضا، وحرام أن نأتي على أسرته بهذا الشكل، (معوض) مؤكد سوف يكون سجنه لأعوام كثيرة فلا يجب أن تدفع أسرته، الزوجة والأولاد ثمنا أكثر من هذا، ثم هو كان يملك فدانين من الأرض، هذا ليس عدلا و الله لولا أننا نحاول إيجاد حل يمنع تفاقم الأمور ما قبلنا شيئا، أيا كان فلا شيء يساوى دم (طالب).

صافحة الحضور بحرارة وعانقوه، جرت جلسات المحاكمة، سئل (معوض) كثيرا عن سبب قتله (لطالب)

= كرر دوما الشيطان ملعون أبوه، ساعة شيطان وغياب عقل، وأنا كنت ضعيف حينها.

أما عما تم من تحريات كثيرة عن السبب، لم يتوصل أحد لشيء، من كان يعرف، العمدة والقاتل والمقتول (ونجاة) ، تكتم العمدة وتكتمت هي وابتعدا عن قول أي شيء، بنهاية الجلسات حكم عليه بخمسة عشر عاما، (نجاة)، منذ الحادث كانت تعمل مغيبة عن كل شيء حتى إن الحاجة ظنت بها مرضا، ولما ضغطت عليها كان ردها.

= هل ما حدث (لطالب) أمر هين؟ أليس هو من أتى بي إلى هنا وفتح لي باب رزق لديكم، وتسبب في ستري وانتشالي من عالم التشتت بين البلاد وبين الغرائز المصوبة نحوى دوما؟ كان وجهي ومعرفته لي شؤما، ألا يكفي هذا يا حاجة؟

ضمتها إلى حضنها وقبلتها واجلستها بجوارها.

= هذه أقدار لا يمكن لأحد منا منع حدوثها.

هي لا تعلم عن السبب شيئا، هدأت (نجاة) لحد ما، أقبلت دوما على الصلاة وقراءة القرآن، وكانت كثيرا ما تتسلل إلى مقبرته، تجلس وقتا طويلا تقرأ القرآن وتدعو له وتبكي، من يمر بها يتمتم. = بنت أصول،تشعر كأنها من البلد.

الغريب في الأمر أن العلاقة بين الزوجتين زادت قربا، الوجع واحد، قام العمدة بتزويج نجاة لأحد شباب الخفراء بنى لهم حجرتين بداخل الدوار انجبت بعد عامين من الحادث ولدا أسمته (طالب)،

Edit with WPS Office

وكان الاسم هو الغالب على مواليد هذه الفترة، ثم أنجبت ابنتين.

حان وقت الإفراج عن (معوض) بمضي ثلاثة أرباع المدة، الكل انتبه لهذا ، أخذهم التفكير فيما هو آت، خرج اختفي أياما ببيته، لا يعرف كيف يجابه أهل القرية ، وأيضا يعتريه الخوف، مؤكد أن هناك من يرغب بالثأر رغم ما وصله من أخبار الصلح، كان شديد الحرص في اللحظات التي يخرج فيها يتمشى قليلا بمحيط بيته ، أو عند جلوسه لبعض الوقت أمام بيته مع زوجته واولاده وأحفاده، بذات الوقت أربعة رجال كانوا شبابا حين وقعت حادثة القتل، أخذوا يتابعون خطواته، هو سئم بعد شهور من سجنه ببيته، قرر أن يخرج إلى أرضه، زادت حركات رصده، إلى أن كان يوم قائظ الحر، قبعوا بأحد الحقول على طريق سيره عاد معتليا دابته التي تحمل بعضا من أعواد الذرة، كان يدندن بلا سبب هو ذاته مندهش فهو لم يعرف الدندنة والغناء أو حتى السكينة من زمن بعيد، خرجوا عليه أربعة بقامات وأجساد قوية، جذبوه إلى الأرض، وطرحوه أرضا، برك فوقه أكثرهم قوة، أخذوا يوجهون له الصفعات والركلات، ثم أخرج كل منهم سكينا وانهالوا عليه طعنا هو لم ينطق بأي لفظ، أصيب بـ الخرس، حتى ألمه لم يبح به، اثخنوه طعنا، تأكدوا أنه غادر الحياة، أسرعوا هاربين، كل منهم أخذ طريقا مختلفا، ولكنهم التقوا أمام منزل الحاج (صبحى) كان قد غادر الثمانين من العمر بسنوات، أخذوا يطرقون الباب بعنف، فتح أحد أبنائه الباب، ازاحوه جانبا بشدة حتى كاد ينكفئ على وجهه، اندفعوا قاصدين جلسة الشيخ المعتادة تحت تكعيبة عنب يسترخى على أريكة، ما أن شاهدهم بهذا الحال حتى أيقن أن هناك أمرا خطيرا، لمح ثيابهم الملطخة بـ الدم ،ووجوههم اللاهثة الشاحبة والعيون الزائغة، نهض واقفا، تساؤ لاته تسبق لسانه، نطق بعد لحظات من تمرير نظراته إليهم.

= ما بكم؟ ماذا فعلتم؟ إياكم أن تكونوا فعلتم ما بصدري؟

لم يجد إجابة على الفور، أشاروا برؤوسهم بالتأكيد، جلس مصدوما وضع رأسه بين يديه وغاب عن الوعي لحظات، ثم أشار إليهم بـ الدخول والاستحمام وارتداء ثياب نظيفة، ويذهب كل منهم إلى بيته وعدم الخروج حتى نرى ما يحدث، أمرهم بان يأخذوا ثيابهم

Edit with WPS Office

الملوثة ويخفونها، هرولوا مسرعين كل منهم أخذ طريقا مغاير للآخر رغم أنهم ببيوت متجاورة، الجد الأكبر أصر على بناء البيوت الخاصة بالعائلة بحيز واحد يضم كل العائلة، حتى نسائها اللاتي تزوجن من رجال لا ينتسبون للعائلة كان شرط الزواج الذي ظل سائداً على مدار عقود أن من يريد الزواج من بناتنا يقوم ببناء بيت بين بيوت العائلة، الحاج (صبحى) بعد خروجهم جلس واضعا رأسه بين يديه، هو يعرف أنه أدخل روحه بحيز الحيرة وحيز الاتهام إن أبلغ عنهم سوف يتعرض لهجوم العائلة، قد يخسرهم ولكنه خسر ما كان يسير عليه طوال عمره الحق ولا شيء دونه، وضع نفسه تحت حبل المسا ءلة قد يوجه له الاتهام بأنه شريك أو محرض، صرخ بحرقه.

= الأمر لله، هو أعلم بالنوايا، سترك يا رب.

ظنوا أن لم يرهم أحد، الوقت كان وقت الظهيرة ، وكان الجو قائظا ، والمعتاد ممن يعمل بالزراعة إما الدخول إلى الزراعات والركون إلى أماكن بعيدة عن أشعة الشمس الحارقة أو النوم بمصليات مقامة على شواطئ الترع مظللة بأشجار تعطي ظلا ظليلا ، أو البعض يعود لبيته يستريح قليلا ثم يعود بعد انكسار ذروة الحرارة، ولكن اتضح أ ن هناك امرأة رأت كل أحداث الطعن والقتل، لم يمر وقت طويل حتى تم القبض على ثلاثة منهم، المرأة كانت قريبة لأحدهم، ذهبت مسرعة لدوار العمدة وهي تلهث وتصرخ.

= قتلوه (عامر ومهدى وعبد الباسط، ولاد عائلة عجلان) قتلوا (معوض البلحي) أنا شاهدتهم.

ورفعت صوتها بالعويل واللطيم، وأسرع العمدة بإبلاغ المركز الذى أتت سياراته تطلق أبواقها باستمرار، مما جعل كل الأبواب تفتح على مصراعيها، وتلفظ كل ما بها من بشر على اختلاف الأجناس والأ عمار، وقيل فيما بعد ممن عاصروا هذا أن بعض الدواب أصرت على الخروج مصاحبة لهم، استمع كبير الشرطة لأقوال (نفيسة زهران)، التي أعادت على مسامعه ما شاهدته، أمر على الفور بالقبض علي من ذكرتهم، طرقوا أبواب كل منهم، أتوا بهم وكل منهم ينكر أن يكون قد فعل شيئا، واجهوهم بالشاهدة أطرقوا رؤوسهم فلم يعد من سبيل

Edit with WPS Office

لعدم الاعتراف، ولكن نظر كل منهم للآخر متسائلا أين رابعهم (غريب)؟ ولكن لم يقولوا عنه شيء، اقتيدوا إلى مكان الجثة، مثلوا الجريمة، ثم انطلقوا بهم إلى المركز، غلفت القرية بالحزن والخوف من تبعات الأحداث أسرع حكماء القرية بدعوة من العمدة بالجلوس لمناقشة كيفية الحل، قرروا أن يقوم أبناء عائلة (عجلان) بالتنازل عن فدان أرض زراعية ومليون جنية لعائلة (البلحي) وإقرار من الطرفين أن من يخرج عن الاتفاق يغادر كل أفراد عائلته القرية، وتؤول كل ممتلكاتها إلى العائلة الأخرى، ووقع كلتا العائلتين على هذا ، وشهد الشهود، وحفظت لدى العمدة، سارت المحاكمة على مدار عام، حكم على كل منهم بسبع سنوات، سارت الحياة هادئة حتى بعد خروجهم، الأمر المستغرب أن ابنة (معوض) التي أشارت للشرطة على حذاء أبيها، تزوجت من ابن أخ (طالب)، وكأن شيئا لم يكن ، وكانت سبيلا لإنهاء ضغينة الثأر، العمدة أصابه مرض عضال وعندما شعر بدنو أجله، طلب بناته، جمعهم مع "الحاجة"

= لا تندهشوا ولا تحزنوا ولا تبكوا اعتراضا على أمر الله، وأمر الله نافذ نافذ أنا ذاهب إلى رب رحيم، أكرر فلا تبكوني ، فلا اعتراض على مشيئته، دعوتكم لقرار أخذته أرجوا أن لا تعترضوا عليه، سوف أمنح (راغب) الخفير وزوجته (نجاة) ستة قراريط أرض بالإ ضافة إلى مكان سكنهم ،على الأقل يظلون برعاية أمكم ، فانتم كل له حياته، ودوما على سفر بالخارج مع أزواجكن، ولا أستطيع أن أ طلب من أي منكن أن تترك بيتها وحياتها، فقط لا تنقطعواعن أمكم، هذا قرار ووصية، وهذا ما وثقته من شهور، وجئت بكم حتى تعلموا وتنفذوا رغبتي عاهدوني على عدم الرفض أو إثارة مشاكل نهائيا (نجاة) وزوجها خدمونا بكل إخلاص، ما ردكم؟

ارتموا على صدره ، وأخذوا بتقبيله ،وهم يبكون، أقروا له بالموافقة بل أسرعوا لكتابة إقرار بالموافقة على ما تم من وصية، ما جعله يبك ي ويتمتم.

= الحمد لله أني نجحت بتربيتكم أنتم أكدتم هذا، كنت واثقا من عدم خذلانكم لي، بارك الله لكن وعليكن، قرت عيوني بكن.

Edit with WPS Office

لم تمض أسابيع قليلة، وفاضت روحه إلى بارئها، بكته القرية كان رج لا حكيما عادلا (نجاة) لم تنقطع عن زيارة قبره وقبر (طالب)، بل أوصت أولادها بان يقوموا بهذا بعد وفاتها، للحقيقة كان الأمر مثيرا للدهشة من قبل وفاة العمدة مما دفع امرأة فضولية لحد كبير ل سؤالها عن السبب. أجابتها دون تروى.

= كان سببا في حياتي هذه، في انتشالي من عالم كنت أعيشه بلا رغبة، كان سبيل هداية، لم يغرر بى ،ولم يشتهيني مطلقا، كان إنسانا وهذا ما يجعلني لا أنساه حتى أموت، حينها ربتت عليها واحتضنتها وزرفت دموعها.

= أنت أصيلة يا (نجاة).

مما يذكره أهل القرية حتى الآن ـ رغم مرور عقود من الزمن ـ أنها قبل وفاتها بأيام أمرت ابنها (طالب)، أن يرفعها على دابة ، ويذهب بها إلى المقابر، نفذ الابن رغبتها، جلست بجانب قبر العمدة وأخذت تقرأ القرآن، وتدعو له بصوت عال متهدج، استغرب ابنها من عنفوانه ـ وفعلت هذا أمام قبر (طالب) وتمتمت.

= انتهت الرحلة أكيد سوف نلتقى في ساحة الله..

Edit with WPS Office

=9=

....العطاء....

==========

قم للمعلم وفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

مقولة وشعر لأمير الشعراء (أحمد شوقي) ترسخت بداخلنا طوال العمر وطوال مراحل دراستنا، أمر حتمي عشناه وأحببناه بكل حواسنا، لم يفرض علينا، مازلت أذكر الكثير من أساتذتي، بملامحهم وبأصواتهم، وحب لعملهم بصدق وضمير ، لا زلت أتذكر أستاذ الحساب بمرحلة التعليم الابتدائي، كان اسما على مسمى الأستاذ (عبد اللطيف)، وكان لطيفا فوق التخيل، ينزل بعمره إلى عمرنا الطفولي، جعلنا نحب مادته ونحبه وننتظره ، جعلنا نشتاق دخوله إلى الفصل، نسمع له بإنصات تام، بلا أي ضجيج رغم ملامحه الجادة التي تنبيء على خلاف جوهره، كان يدخل الفصل بابتسامته تسبق خطواته يملأ جيوبه بالبنبون والشيكولاته، يمنحه حافزا لكل مجتهد ونابغ، رغم أنه يأتي من المدينة، كان أول الحضور، بعد الانتهاء من العمل لا يغادر، ينتقي البعض منا يرى أنهم بحاجة لدروس إضافية ، ويجلس إليهم بالساعات بلا ملل ولا كلل، أتذكر أني مرة كنت أمر أمام مكتب الناظر، كان جالسا أمامه يتناقشان حول بعض الأشياء المتعلقة بالعملية التعليمية ، من بين ما سمعت.

= أستاذ (عبداللطيف) مؤكد نشكرك ولكن أرجوك انتبه لصحتك أنت تجهد نفسك كثيرا وتعمل فوق المطلوب منك.

وجدته يرفع كفه بوجه الناظر طالبا منه الاكتفاء من القول، نهض واقفا منتفضا وبصوت هامس.

= أولا أشكرك لخوفك على ولكنى أوضح لك أمرا هاما ما أفعله

Edit with WPS Office

أفعله بحب ،وبرضا وضمير، مراعاة لرب العالمين ثانيا: أقول لك قولا سمعته من أبى الذى أخبرنا أنه سمعه من أبيه، قول يبدو أنه ميراث عائلي: إن اليوم الذى يمر على الانسان دون أن يضيف له شيئا لا يحتسب من أيامنا، إذا علينا أن نجعل من أيامنا إضافات وما أعمله هو بحث عن إضافات إيجابية على حياتي، هذه المقولة ترسخت داخلي وعاشت معي للآن، أتذكر أني كلما كنت ألتقيه بعد التحاقي بمراحل تعليميه أخرى، كنت أسرع إليه، أضمه أقبل رأسه اعترافا بقيم غرسها فينا، للأسف في أيامه الأخيرة حسبما سمعت أصيب بضعف حاد بالسمع. شخصية أتمنى أن نجدها نموذجا وقدوة دائمة أمام أحفادنا، نحن بحاجة لمعلم الأمس، رحمك الله ، ورحم الله كل ما كان صاحب رسالة !

=10=

وفاء نادر

==========

طرق رجل البريد بابنا، أعطاني مظروفا، تناولته وأنا أتمتم.

= من الذى يراسلني، أنا في هذا الوقت ـ شحيح العلاقات أو بالأدق لم أتجاوز حدود القرية وبعض أصدقاء الدراسة.

حياتي منحصرة بين القراءة بنهم، كان يمكنني القراءة لساعات طويلة دون انقطاع تمكنني من قراءة كتاب كامل، هذه كانت أيامي بين العمل وبين القراءة لا ثالث شريكا لهم، المهم تناولت المظروف، جلست،وفتحته، وجدته دعوة لأداء اختبار وظيفة ببنك كنت تقدمت لها من حوالى سنة ، وربما أكثر حتى أنني نسيت الأمر تماما، طرت فرحا وهرولت مسرعا إلى أخ لي يعمل بذات البنك ، ولم يكن يعلم أني تقدمت لهذه الوظيفة، عاتبني على عدم إخباره ، وقال.

= إنه سيصحبني أثناء أداء الاختبار المحدد له بعد ثلاثة أيام، و يوافق يوم جمعة.

في اليوم الأول فوجئت بالعدد الكبير المتقدم لوظائف البنك، علمت فيما بعد أن العدد يقارب الألف والبنك لا يحتاج نظرا لحداثة نشأته

Edit with WPS Office

إلا ربع عدد المتقدمين لهذه الاختبارات، كل يوم كان يتم على الطريقة الأمريكية السؤال وأكثر من إجابة للاختيار بينها وفي كل مناحي المعرفة ، سياسة واقتصاد وعلم نفس واجتماع وعلم إدارة ومعلومات عامة، ولساعات طويلة، للمرة الأولى أيقنت أن عشقي للقراءة أفادني بشكل كبير، انتهى يومين من الاختبارات ، وبقى يوم واحد ، ترسخ بداخلي يقين أن الأمر يحتاج إلى توصية من أحد الشخصيات ذات الحيثية، أسرعت إلى مكتب أبي، أعرف عنه أنه كان وثيق الصلة بالكثيرين من وجهاء المجتمع وأصحاب الشأن، وكم رأيت من بطاقات التعريف تؤكد هذه العلاقات وعمقها، فتحت الدرج وأخذت أقلب بمجموعة البطاقات الموجودة رغم وفاته قبل أربعة عشر عاما، وجدت بطاقات من الزعيم الخالد (جمال عبد الناصر) ما بها يدل على وجود صداقة قوية، كل بطاقة معنونة منه، عزيزي الحاج (سيد) ، عثرت على ما أبغيه، وضعته داخل جيب القميص الذى انتويت ارتداءه، أجزم أني يومها لم أنم، خرجت مهرولا لألحق بقطار السادسة والربع الذى يصل إلى مدينتي بعدها بما يقرب من ثلث الساعة ـ إن سار بسيره الطبيعي ـ أخذت بعدها قطار القاهرة، انتهيت من الاختبار، ركبت أتوبيس يقترب بي من مكان العنوان المدون ببطاقة التعريف 5شارع الحكماء منشية البكري، مصر الجديدة القاهرة، وصلت للعنوان في حدود الرابعة عصرا، اقتربت من البواب الجالس أمام المبنى في هيئته التي نراها كثيرا في الأفلا م القديمة والحقيقة أن هذه الهيئة تناسب هذا الحى شديد الهدوء، سألته عن الشقة التي يسكنها الباشا؟ أجابني ، أخذت أصعد درج السلم شديد التلعثم الحركي، أصعد درجة وأهبط درجتان وأنا اتصبب عرقا فكرت في العودة بسبب فكرة تراودني أنه ربما لا يتذكر علاقته بأبي أو ربما لا يتذكر أبى من الأساس، وصلت إلى الدور الرابع، وقفت ألتقط أنفاسي وأخفف من عرقي، ضغطت على زر الجرس، بعد دقيقتين فتح الباب عن سيدة ترتدى زيا أنيقا محتشما ،وعلى رأسها شيء سبق وأن شاهدته في الأفلام يشير إلى أنها مديرة المنزل، سألتها،

= الباشا موجود؟

Edit with WPS Office

= نقول له من؟

الإجابة التي جاءت عفوية.

= أخبريه أني من أبناء عزبته وأرجو لقاءه.

= لحظات.

قالتها ولم تنتظر ردا، صفقت الباب بهدوء وازدادت دقات قلبي وزادت مساحات تصبب العرق، استمر وقوفي لدقائق فتح الباب عن رجل فارع الطول ضخم البنيان، يرتدى زيا جميلا بحزام أحمر قاني، وطربوش فوق رأسه شديد الأناقة فهمت أنه السفرجي، أشار إلى بـ الدخول، دخلت إلى حجرة شديدة الاتساع بها أكثر من صالون بطرازات مختلفة ولكنها متناسقة الألوان، جلست غصت تماما في المقعد، جلست وحيدا والخوف ينهشني تماما، عاد إلي السفرجي ليسألني.

= ماذا أشرب؟

طلبت شايا أتى به مسرعا، وكأنه سابق التجهيز، مر وقت وأنا انتظر قلقا، ودخل رجل باسق القامة ممتلئ الجسد يناهز أو تجاوز السبعين من العمر، ولكن إمارات الصحة واضحة تماما ، جلس مقابلا لي تأملني قليلا ثم سألني.

خيرا يا ابنى.

بالكاد خرجت الكلمات من فمي.

= أنا (أحمد ابن الحاج السيد طايل).

ما إن انتهيت من الحرف الأخير إلا وجدته ينتفض من مجلسه، ويجذبني بقوة من ذراعي ويدخلني بين أحضانه، بل تلاشيت داخله وأنا حينها كنت شديد النحول، وأخذت دموعه تنهمر من عينيه، بل وصل الأمر إلى حالة النشيج، بعد دقائق أطلق سراحي، أجلسني مجاورا له ، بل لصيقا به ، واضعا يده على كتفي، شديد التأمل في ، قال.

= غير ممكن يا الله ! أبوك كان رجلا لا أظن أني عرفت مثله ، ولكن أ

Edit with WPS Office

نت نحيف جدا عنه ولونك داكن بعض الشيء عن لونه، هذا التباسط أطلق لحريتي العنان ، فبادلته الرد مزيحا الخوف والحواجز إلى حد ما.

= يا باشا ربما لأنه أنجبني في عمر متأخر.

تبسم وسألني خيرا أؤمر.

أخبرته بحاجتي لتوصية حتى أعمل بالبنك.

= من رئيس مجلس الإدارة؟

= محافظ البنك (دكتور محمد فؤاد الصراف).

كنت قد عرفت الاسم من أخي، ضرب كفا بكف بهدوء، وتهللت أساريره.

= جميل هو كان وكيل وزارة التخطيط بعهد (عبدالناصر) ولى به ع لاقة ود ّ متبادل حمدا لله ، ولكن.

عندما لفظ بلكن هذه أصابتني رعشة داخلية، هل خاب الأمل؟ أكمل.

= أنا حاليا في حداد على زوجتي، ومن عاداتي بحالات الحزن ألا أفعل شيئا على الإطلاق لحين بلوغ الأربعين، الأربعين بعد أسبوع من الآن، أنا بعدها أنزل المزرعة بالهرم، الثامنة صباحا، وأعود قبل المغرب تعال بعد الأربعين بأمر الله أكون اتصلت به ، والله يفعل ما به الخير.

أطلقت عبارات العزاء المعتادة له ، وتأسفت لحضوري في هذا التوقيت، ربت على كتفي ثم أخذ يسألني عن إخوتي كل باسمه، تعجبت أنه مازال يتذكرهم، تذكرت لحظتها أن أحد إخوتي كان يريد السفر للعمل إلى ليبيا، وكان هناك بعض العراقيل أمام سفره فذهب إلى ناظر عزبته وطلب منه مصاحبته وسيطا لمساعدته على السفر و عندما ذهبا وتكلم الناظر عن رغبة أخي، قاطعة على الفور صارخا.

= أنت أتيت وسيطا لمن؟! لابن حبيبي المقرب، الأصح أن يأتي هو وسيطا لك.

طلبت الإذن بالانصراف أصر على تناول الغذاء معهم، طلبت منه

Edit with WPS Office

السماح لي أن أغادر كي أستطيع اللحاق بالقطار، بعد إلحاح أذن لي، أخذت أقفز درجات السلم، وأنا لا أصدق نفسي، عدت وقد زادت أح لام الوظيفة الجديدة، مر الوقت بطيئا جدا، لا يكاد يتحرك حتى مر موعد الأربعين الذي أخبرني به أسرعت باكرا إلى السفر، يجب أن ألقاه قبل نزوله للذهاب للمزرعة، فعلا كنت جالسا بجوار الباب من السابعة والنصف، في الثامنة خرج من باب البناية شاهدني، أشار إل ي بالمجيء إليه ، وضع يده على كتفي، سألني عن أحوالي وأحوال إخوتي، ثم مد يده إلى جيب الجاكت مخرجا بطاقة تعريف قدمها ل ي.

= إذهب بها للدكتور (الصراف) ، أنا حدثته وربنا يوفق ، فقط طمني على النتيجة.

وداعب رأسي، غادرت شاكرا وغير مصدق ، أسرعت من فورى إلى أخي بالبنك أعطيته البطاقة، أخذني من يدى وسار بي إلى حيث مكتب محافظ البنك، طلب مني الانتظار حتى يدخل ويعود إلي، غاب حوالي ربع ساعة ، خرج مبتسما.

= الحمد لله، مبروك المحافظ قال إن الباشا كلمه، ثم إنك ناجح، في الحقيقة كان إحساسي أن الجملة الأخيرة حرصا على كرامتي، بادلت أخي العناق، وفعلا توظفت بالبنك، والآن ورغم مرور أكثر من ثلاثة عقود لا يغيب هذا الرجل عن خاطري، وصورته ماثلة أمام عيوني، مثله لا ينسى ،رحم الله الرجل (أبو الوفا مروان) صهر الزعيم (عبدالناصر)! رجل من عصر كان به الوفاء عنوانا.

Edit with WPS Office

=11=

صداقة

====

ذات صباح من قرابة خمسة عشر عاما كنت أداعب أزرار الحاسوب أ بحث عن كتاب وكاتبات أتباعهم واقرأ لهم، لفت نظري شاعرة عراقية، الشاعرة (وفاء عبد الرزاق)، اطلعت على كتاباتها وإصداراتها وجدت أنها متعددة المناحي الأدبية الإبداعية، غزيرة الإنتاج، في التو أرسلت لها طلب صداقة، وأني راغب في حوار معها أضمنه إصدارا لي أعده، أتتني موافقتها أعددت تساؤلات الحوار،أرسلتها إليها ، بعد أيام جاءتني الإجابات، تواصل بيننا الحوار، عرضت عليها الحضور إلى مصر، مصر هي بؤرة وقبلة الإبداع والمبدعين، طلبت مهلة للرد وجاء هذا بعد عده شهور، أخبرتني بموعد الحضور وأنها سوف تقيم في سكن لصديق عراقي متواجد بالقاهرة وله أكثر من مقر سكني اسمه (وسام هاشم) ،شاعر كبير كان يقيم بإحدى البلدان الأوروبية وأتى لمصر وأقام جاليرى سماه (كونيست بشارع شريف بـ

Edit with WPS Office

القاهرة)، (لا أعلم عنه حاليا ومن سنوات أين هو؟ والمقصود هو (وسام هاشم)، مثلما جاء بغتة اختفى أيضاً بغتة، ذهبت في الموعد المحدد إلى الجاليري ، كان لديه علم بي من خلال صديقتي، أخذنا سيارة وذهبنا لاستقبالها بالمطار، وصاحباناها إلى السكن المخصص لها، وغادرت مع وعد بالحضور لإعداد لقاء كنت قد اتفقت مع مسئول ي اتحاد الكتاب بمحافظة الغربية لإعداد أمسية شعرية لها، ولقاء متلفز بالقناة الإقليمية، انتظرتها بمحطة القطار وانتقلت بها فورا إلى نادى طنطا الرياضي حيث موعد اللقاء التليفزيوني الذى استغرق نصف ساعة، ومن ثم صحبتها مع وجود أخ أكبر لي إلى قرية (سامول) مركز المحلة الكبرى حيث كان صديقي الراحل (فريد معوض) ـ كاتب أطفال وقاص وروائي وتحولت بعض أعماله لدراما ل لأطفال والكبار، كان الحضور عددا من كتاب المحلة، تناقشنا حول ا لأدب وتنوعاته ومصداقية المشهد الأدبي بعالمنا العربي، كان لقاء ثريا، تناولنا الطعام الريفي المعتاد الشهي، ثم غادرنا عائدين إلى ا تحاد كتاب الغربية، حيث كان الحضور كثيفا ، أثرت القلوب بشعرها ، وطلبت أن يصاحبها بالعزف على العود أحد الحضور، عزف وتغنت بشعرها تغنت بلهجتها الدراجة العراقية، ربما بعض المفردات لا تفهم ولكن الجمع كان منتشيا بالإلقاء والعزف الهادئ المصاحب، حرص الكثير على التقاط الصور التذكارية معها، عدت بها إلى محطة القطار ، كنت قد حجزت لها بأحد القطارات المكيفة، عادت تحمل السعادة بداخلها ، أعددت لها لقاء بنقابة الصحفيين، عرفتها بالدكتور (صلاح فضل)، ودبرت لها لقاء مع المخرج الكبير (مجدى أحمد على) بمقهى (الجريون) الشهير فهو ملتقى كل الفنانين والمبدعين، لتعرض عليه إحدى رواياتها لتحويلها لعمل درامي، ولم يتم الأمر بسبب أن اللغة العامية العراقية تسود العمل مما يعوق تحويله إلى دراما من وجه نظر المخرج، تعرفت على الكثيرين من مجال الأدب والثقافة، في يوم دعتني لحضور أمسية لها بالجاليري، حضرت بصحبة صديقي (إبراهيم ياسين) يعمل مذيعا بالقناة الإقليمية، جمع كبير بالقاعة يجمع بين عراقيين مقيمين بمصر وعرب من أقطار أخرى وبعض الكتاب ومراسلي الصحف وكتاب من مصر، كانت هناك قناة فضائية عراقية، لا أتذكر الاسم الآن ،ولكنى أتصور أنها كانت قناة

Edit with WPS Office

(البغدادية) تسجل الأمسية، قبل أن تبدأ بإلقاء أشعارها، طلبت الميكروفون أمسكت به قالت.

= أطلب التسجيل على الفور.

أعدت الكاميرات أمسكت بالمايك قالت.

= قبل أن نبدأ أمسيتنا، أود أن أوجه الشكر للأستاذ (أحمد) وأشارت إلي، هو من أقنعني بالمجيء لمصر ، وهو من أعد لي برنامج الزيارة، فتح لي كثيرا من أبواب الإبداع بتنوعاته، أشكره وأدعوكم لتحيته.

تعالى التصفيق مما أصابني بنوع من الارتباك، بعد الأمسية عرفتني بـ المذيع التابع للفضائية الكاتب المتنوع إبداعا الراحل (خضير ميري) تحدثنا في قضايا فكرية متعددة تبادلنا الإعجاب، تصادقنا على الهاتف ولقاءات متعددة، أهداني إصدارا له بعنوان (كيس أسود مخصص للأذبال)، توثقت صلتنا، دعاني إلى أمسيات بأتيليه القاهرة يديرها هو كانت مع الفنان (خالد الصاوي) الذى يكتب الشعر و الرواية، وأيضا الفنان (محمود حميدة) وحديث حول رحلته الفنية، بعد عودة الشاعرة إلى لندن حيث تقيم، زاد تقاربي مع (خضير)، أعددت له لقاء باتحاد كتاب الغربية بمشاركة صديقنا الشاعر العراقي (سعد جاسم) والشاعر المصري (سعدني السلاموني)، واستمرت اللقاءات بيننا وتناولت الطعام معه بمحل إقامته، لعله الكاتب الوحيد الذى كتب بورقه تعريفه أنه مجنون بناء على تقارير رجال (صدام حسين)، وأنه دخل السجن والمصح النفسي به لمدة عشرة أعوام وأكثر، حتى أفرج عنه وغادر إلى العراق وبعدها بشهور أتاني خبر وفاته، بكيته بكيت به الإنسان المثقف الموسوعي البسيط، رحم الله (خضير) وظلت الشاعرة (وفاء عبد الرزاق) أختا مبدعة ذات شأن وسمو، الحقيقة :أن الثراء الإنساني المشمول بثراء فكري من أعظم الثروات.

=12=

شاعر القصة القصيرة

==========

Edit with WPS Office

* المشهد الثقافي تشوبه حالة من الوهن

* للوصول إلى نقد بناء لابد من إظهار أصحاب الضمائر النزيهة وآرائهم.

* جيل الستينيات لم يكن حالة مجردة بل هو حالة ثقافية متكاملة.

* عاش جيلنا أحلاما كبيرة وخيبات أمل كبيرة أيضا.

* عندما أكون بعيدا عن الأضواء أشعر بارتياح نفسي، مجرد أن أ كون محل نظر أشعر بقلق عميق.

ستظل هذه العبارات التي أطلقها الراحل المبدع (إبراهيم أصلان) راسخة داخلي لأنها لم تكن مجرد شعارات، بل كانت تحدد واقعا ملموسا يلمسه كل مثقف حقيقي ،سمعت به للمرة الأولى وأنا بالصف الأول الإعدادي حينما بدأ شغفي بالقراءة يتوهج ،عندما قابلت صديقي (محمود أصلان) يحمل كتابا بعنوان (بحيرة المساء) لكاتب يحمل لقب عائلة صديقي، لفت نظري تشابه اسم العائلة، سألته عنه أخبرني أنه ابن عم له، ولد بذات القرية، (شبشير الحصة.طنطا.غربية) وعاش بها لسنوات ثم انتقلت أسرته إلى مدينة طنطا لوقت، ثم كانت الإقامة النهائية بالقاهرة، طلبت منه استعارة المجموعة القصصية ، أقرأ وأعترف أني بهذا العمر لم أفهم ما بها ولكن عندما عاودت القراءة بعمر أكبر جذبتني اللغة والمعاني ا لإبداعية والفلسفية ورسائل قصصه، الكلمة عنده كان يختارها بميزان حساس، كلمة تقرأها تعطيك معاني يمكن أن تسطر بصفحات ، استهوتني كتاباته، قرأت له على مدار الأعوام ، (مالك الحزين) التي تحولت إلى فيلم سينمائي بعنوان (الكيت كات) (يوسف و الرداء)، (وردية ليل)، (حكايات من فضل الله عثمان)، (خلوة الغلبان) ومقالاته بإحدى الصحف بعنوان (شيء من هذا القبيل)، لغته التليغرافية سمة مميزة لكتاباته، لسابق عمله بهذا العمل، عندما دعتني نداهة الكتابة والهرولة إلى عالم الثقافة دفعني هذا إلى التفكير الجاد للسعى لمعرفته على أرض الواقع، طلبت رقم هاتفه وهاتفته وعرفته بي، فقد كانت ابنة عمة له زوجة لأحد إخوتي،

Edit with WPS Office

رحب باللقاء وحدده بمقر صحيفة الحياة اللندنية بجاردن سيتي ، بناية من الطراز المعماري القديم قريبة من السفارة الأمريكية بـ القاهرة، كان الوقت عصراً دخلت إلى مكتبه الصغير مساحة، تحيط بحوائطه مكتبة بها عدد كبير من الكتب ومكتب تعلوه أعداد من صحيفة الحياة، وبعض صحف أخرى، أعترف أني جلست إليه، لا أصدق أني بحضرته هذا المبدع الذى تحتفي به الدول، وكتاباته تتناولها رسائل وأطروحات ماجستير ودكتوراة بكثير من البلدان، تلعثمت كنت أشبه بتلميذ يدخل باب المدرسة للوهلة الأولى، أخذ هو زمام الحديث، سألني عن بعض أحوال قريته وأقربائه، زالت مساحات الدهشة تباسطنا وجدت نفسى بحاجة ملحة لإجراء حوار دون إعداد مسبق معه، عرضت عليه ما يدور برأسي، لم يتردد برهه بالتلبية وكنت دوما حريصا على حمل مسجل صغير، عادة لازمتني لسنوات بغية ان أسجل بصوتي بعض ما أصادفه من مشاهدات وبعض الحوارات التي تحدث صدفة، حاورته حوارا نشرته بإصداري الأول، (على أجنحة أفكارهم..إطلالات ثقافية) صدر 2006، وقبل أ ن ينتهي الحوار اقتحمت فكرة فى عقلي ، وظلت تطن به، أن أقيم له لقاء بقريته التي أخبرني أنه لم يأت لها من أكثر من ربع قرن، عرضت عليه الفكرة أعجبته ووافق عليها، انصرفت أحمل سعادة لا محدودة، في اليوم التالي ذهبت إلى مديرية الثقافة بمحافظتي الغربية، قابلت المدير العام ابن دمياط المثقف (محمد عبد المنعم إبراهيم) الذي كان يعرفني لسابق نشاطاتي بمجال الثقافة ،الذى أعرفه عنه أنه كان صحافيا بجريدة الجمهورية، وأبعد بموجب ما يسمى بالتطهير، وحتى الآن لا أعرف أسبابه، أبعد إلى وزارة التموين ، ولكنه سعى إلى أن عاد إلى الثقافة فعمل بهيئة قصور الثقافة، عرضت عليه ما تم، رحب تماما وتناقشنا بأن تكون هناك لقاءات عديدة لشخصيات من الغربية، حددنا بعضها (د سمير سرحان، د جابر عصفور وآخرون) أخذ مني رقم (أصلان) وأمر بكتابة رسالة إلى رئاسته بالقاهرة، وظل يتابع الأمر حتى جاءت الموافقة، تحدد اليوم، كنت قد اتفقت مع قائم على إحدى الجمعيات الأهلية بقرية (أصلان) بها صالة كبيرة على استضافة اللقاء، انتظرنا قافلة الثقافة القادمة من القاهرة أتوبيسا يحمل أدباء ونقاد مثل (سعيد الكفراوي)

Edit with WPS Office

الذى أقمنا له أمسية بقريته كفر حجازي مركز المحلة الكبرى فيما بعد، (الأساتذة، محمد السيد عيد، فؤاد قنديل، د محمد بدوى،وهالة البدرى وآخرين) حضر نائب المحافظ نائبا عنه ليقدم درع المحافظة إلى المكرم، أخذنا طريقنا إلى القرية، كنت سابقا قد أعلنت الأمر لابن عمه يعمل مدرسا بمدرسة القرية، عند وصولنا فوجئنا بحشد كبير بحالة ترقب وانتظار، فوجئنا أيضا باصطفاف صفين من تلاميذ المدرسة بالزي الموحد، صف للأولاد وآخر للبنات، كل منهم يحمل زهرة، ما إن سار بينهم (أصلان ورفاقه) حتى ارتفعت أصواتهم بـ الغناء بنشيد أعد عفويا من ابن عمه ما جعل (أصلان) يبكى، وأخذ يمرر يده على الأطفال الصغار، ما أن وصل إلى القاعة حتى وجد نفسه أسيرا للأحضان والقبلات، هذا يعرفه إنه ابن عم أو عمه له ، وهذا ابن خال أو خالة، وهذا كان صديق طفولته، أخذ وقتا طويلا لـ لانفلات من أسر عواطفهم الفياضة، جلس على المنصة بجواره بعض مسئولي الثقافة بالهيئة وثقافة الغربية ونائب المحافظ، تم تبادل الكلمات والشهادات عن رحلته الإبداعية، وعندما أتت كلمته ا فتتحها بكلمات مازالت تحتل ذاكرتي.

= اليوم أشعر كأني أولد من جديد، غادرت من سنوات بعيدة وكنت أحضر على فترات متباعدة وإن كانت غيبتي هذه المرة تجاوزت الربع قرن، ولكن فعلا أشعر كان شريط أيامى الأولى يمر أمام عيني، جامع الأربعين، الست (فرحانة) والكثير، أعترف أني خسرت هذا الدفء والإحساس غير المصطنع، سامحوني لغيابي الطويل ،وأ شكركم على إعادة ضخ الدماء الساخنة إلى عروقي.

ونهض ووضع يده على صدره وأخذ ينحني مرات ومرات، ودموعه تزين عيونه، انتهت الأمسية بنجاح حاول الكثير من أهله الإبقاء عليه للمبيت معهم ولكنه اعتذر، عدنا وكل منا أساريره تنطق ببهجة ا لإنجاز، خرجت الصحف والمجلات بأحاديث عن هذه الليلة، أذكر أن مال علي (الأستاذ الراحل فؤاد قنديل) قائلا ليكن الاحتفال القادم (لسعيد الكفراوي) وقد كان ، وزاد التقارب بيني وبين (أصلان) و لقاءات ومهاتفات بل كنت سبيلا لتعريفه على بعض كتاب الغربية ، وقد قام بالنشر لهم بصفحة الثقافة بالحياة اللندنية، كان بسيطا لا

Edit with WPS Office

يعرف أي سبيل للتكلف أو التعالي، إلى أن صحوت ذات يوم أخذت أتصفح الصحف إلكترونيا، وجدت خبر وفاته، بكيته وأبلغت أهله بـ القرية الذين سارعوا بالسفر لحضور عزائه، هناك أناس تحت الأرض أحياء وآخرون فوق الأرض أموات، مؤكد هو واحد من الأحياء دوماً بالقلوب والعقول.

=13=

الأستاذ الإمام

=======

منذ أن وعيت وأدركت وفهمت ما يقع تحت يدي من قراءات ـ أجد نفسي شغوفا كل الشغف بالتاريخ والتراجم، اندفعت إلى الابحار في التاريخ ، وخاصة التراث أو كما أسميه أنا : أساس الشخوص و البلدان والأزمان، ثم بمرحلة تالية شغفت بتاريخ قريتي الصغيرة بحثت بل لنقل نقبت عنه، بدأت بالبحث عن كتب تتحدث عن تاريخ البلدان ، وسبب مسمياتها، أعترف أني وجدت مشقة كبيرة، المدينة التي تتبعها قريتي، عدد المكتبات بها قليل في هذا الوقت، ما كان عل ي ـ بعد تفكير أعياني لأيام إلا أن أبحث عما أبغيه بسور الأزبكية الذى سمعت عنه كثيرا، أخذت طريقي إليه ذات صباح، قصدت إلى مكان رجل طاعن في العمر، من المؤكد أن لكل عمل شيوخه الذين يدركون ويعرفون كل أبعاده، سألته عن كتب تهتم بتاريخ البلدان وحكاياتها، الرجل نظر إلي نظرة لم أفهمها حينها، كأنه يتسأل كيف لمثلي ببدايات الشباب يطلب هذا ! المهم أخذ يقلب كتبه وأثناء فعله هذا لمحت كتابين أخذا بصري، الأول (المذكرات الشخصية للأستاذ ا لإمام محمد عبده) محقق بواسطة كاتب من مدينة دمياط (الأ ستاذ طاهر الطناحي) رحمه الله، والآخر بذات السياق (حياة الإمام للكاتب الكبير شأنا وقيمة عباس محمود العقاد) مددت يدى ووضعتهم في زاوية انتظر انتهاءه ، بعد وقت طويل أخرج بعض الكتب (التحفة السنيه بأسماء البلاد المصرية لابن الجيعان)، وكتاب (قوانين ابن مماتي للأسعد ابن مماتي)، وكتاب (القاموس الجغرافي لمحمد رمزي) المكون من عدد من الأجزاء ، نقدته ما توصلنا إليه من

Edit with WPS Office

ثمن بعد جدال ، وعدت محملا بالكتب، منحني الظهر لثقلهم ولكني بذات الوقت أشعر بسعادة لا نهائية، ألقيت بالكتب على فراشي الخاص، وللحق أعترف نمت ليلتها متوسدا ثروتي من الكتب سابحا بين تخيلات التاريخ، في اليوم التالي أنهيت دراستي ، وكل ما يتعلق بها على عجالة متلهفا إلى كتب الأمس، عدت إلى المنزل لا هثا. قذفت بحقيبتي غير مهتم بوضعها كما تعودت، أسرعت بالا غتسال تناولت لقيمات سريعة، غير مهتم بنظرات وأمي وأخوتي، الى أسرعت أمي بسبر أغوار تساؤلاتهم المكتومة.

= مؤكد هو بشوق كعادته للكتب،

وندت عنها واخوتي مشاركين لها في ضحكات هادئة، دخلت و أخذت وقتا أتنقل بين الكتب أتصفح الصفحات الأولى، حتى استقر ا لأمر على تناول كتاب (مذكرات الإمام محمد عبده)، أخذت في القراءة بنهم، كنت أبحث عما يؤكد أنه من مواليد قريتي، وأنها مسقط الرأس الحقيقي له رغم أن الكثير من المنابر الإعلامية بشتى صورها تصر إصرارا عجيبا ومريبا وموجها لتغيير الحقائق، بداية أنا مؤمن كل الإيمان أن كل صاحب فكر وعلم يشار إليه إقليميا ودوليا هو ملك لكل أرجاء الوطن، المهم وصلت حتى الصفحة المرقمة23 وآخرها وجدت جملة"..حصة شبشير ، وفيها ولدت.." ،وهذا تأكيد وتوثيق من صاحب المذكرات نفسه، الحقيقة التي يوليها الكثيرون ظهورهم، حقيقة أن والده (عبده خير الله) من محلة نصر بالبحيرة، ولكنه كان مطاردا من الاحتلال الانجليزي لأسباب تباينت الأقوال بشأنها، فشد رحاله إلى مديرية الغربية وبالتحديد إلى قرية(شنرة البحرية) من أعمال مركز السنطة ، وعمل بأبعدية (المنشاوي باشا) أحد كبار باشوات ذلك الزمان ، والتي تعددت ممتلكاته بكل ربوع مديرية الغربية ،وله وقف خيرى كبير بمدينة طنطا، أخلص (عبده خير الله)في العمل وكان شديد الأمانة، فأراد الباشا مكافأته وضمانا لاستقراره بالعمل معه، فعرض عليه أن يزوجه من عائلة كبيرة بقرية مجاورة اسمها (حصة شبشير) من أعمال مركز طنطا،هى ابنة عائلة (عثمان الكبير) هي أرملة اسمها (جنينة بنت عثمان الكبير)، وافق ثقة منه أن الباشا يريد له الخير ، وقد كان، تزوجها وكان يتنقل بين

Edit with WPS Office

عمله وبين زوجته، ولد الأستاذ الإمام بالقرية، تعلم القران الكريم بكتاب الشيخ (مخلوف عمر الفقي)، وعاش بين أخواله وأهل القرية، والتحق بالمعهد الأحمدي بطنطا وظل على علاقة وطيدة بالقرية وكان من المألوف أن يسرع إليها حال ضيقة من أمور معينة ، أو حاجته للاختلاء بذاته لقرار يريده صائبا، وأكد هذا الميلاد (الأستاذ العقاد)، المعروف عنه أنه لا يكتب إلا بعد تحقيق وتمعن من صحة ما يكتبه، وضعت بفكري أن آخذ على عاتقي مهمة إظهار صحة مولده، حتى لو بعد حين أو أجل بعيد، اقترب يوم5يوليو 2005، وكان يواكب الذكرى المئوية لوفاة الإمام ،أسرعت إلى المجلس الأ على للشباب والرياضة بصفتي رئيسا لمركز شباب القرية وقتها، وكانت تجمعني بقياداته علاقة وثيقة واحترام كبير، طلبت الموافقة على إقامة احتفالية بالذكرى المئوية لوفاة الإمام، وافقوا ورحبوا وأ نهوا الأمور المتعلقة بالأمور المالية والتنظيمية بالتنسيق مع صحيفة "عقيدتي" التي تصدر عن مؤسسة دار التحرير الصحفية، وفي الموعد المحدد تمت الاحتفالية بحضور المؤرخ الإسلامي محقق التاريخ والتراث (دكتور عبد الحليم عويس) ـرحمه الله ـ وبتغطية من إذاعة القرآن الكريم ، وتليفزيون الدلتا الإقليمي، ظل الأمر راسخا في حتى جاء يوم وأثناء تصفحي لصحيفة الأخبار المصرية، بصفحة الإذاعة والتليفزيون، وجدت خبرا عن قرب بدء تصوير مسلسل بعنوان (عصر التنوير، الإمام محمد عبده)، وأن مؤلفه الكاتب الإسلامي والتاريخي، الأستاذ (عايد الرباط)، اتصلت بالأخبار طلبت توصيلي بكاتب الخبر ، للأسف لا أتذكر الاسم، تحدثت معه ط البا إعطائي رقم الكاتب والمخرج، كان بالفعل شديد دماثة الخلق، لبى طلبي، اتصلت على الفور بالكاتب، ناقشته حول مسقط رأس الإ مام ، كان الرد مثلجا لصدري.

= أنا أحضرت عددا كبير من إصدارات تتحدث عن الإمام من بلدان كثيرة، النسبة الأكبر أكدت أن ميلاده هو بقرية (حصة شبشير)، وأنا أكدت هذا حين كنت أكتب المسلسل، ونظرا لاهتمامك سوف أتصل بـ المخرج (شكري أبو عميرة) لأخبره بحديثنا وسوف أطلب منه حضورك وبعض أحفاد أخوال الإمام الأحياء، وأن تكونوا معنا حين

Edit with WPS Office

بداية التصوير، أعطني وقتا أتصل به وأكلمك.

أعطيته رقم التليفون الخاص بي، أخذت مكاني بجوار التليفون ، كم من الوقت مر؟ لا أدرى ولكن جاء الرنين أسرعت رافعا السماعة.

= (الأستاذ شكري) رحب ووافق، وأرجو منك اتصالا به لمعرفة تفاصيل أكتر.

شكرته وطلبت منه أن ألتقى به واقعيا فوافق، أسرعت بالاتصال (با لأستاذ شكري أبو عميرة)، تناقشنا طويلا ، وأخبرته أن لدي سي دي ب الاحتفالية التي أقمتها وأنني سوف أحضر نسخة منه إليه، حدد يوم بدء التصوير باستديوهات صوت القاهرة بالعباسية، ذهبت من فوري إلى أبناء أحد أحفاد أخوال الإمام، اتفقت معهم على مصاحبتي لحضور التصوير وكان وقتها أحدهم مرشحا لعضوية مجلس الشعب ، وكنت أراها فرصة جاءت على طبق من ألماظ كشكل دعائي له مجاني، واتفقت أيضا مع صديقي (د/عهدي السيسي) الأستاذ بكلية آداب طنطا على مرافقتي، وجاء يوم السفر أخلف حفدة الإمام موعدهم، ذهبت أنا وصديقي، عند الرابعة عصرا كنا أمام المبنى، وجدنا علما بحضورنا، كان الترحيب بنا فوق أي توقع جلسنا مع الفنان الراحل (فاروق الرشيدي) أحد المشاركين بالمسلسل ،وكان وقتها أيضا أستاذا بكلية التربية النوعية بطنطا، تحدثنا بموضوعات شتى ومتعددة الجوانب، أعد الاستديو للمشاهد الأولى، توالى دخول (الفنانين أحمد عبد العزيز، أحمد ماهر، منى عبد الغنى، عفاف شعيب، وكثيرين) أخذ المخرج يشرح المشهد لهم، بدأ التصوير لدقائق، تكرر إعادة تصوير المشهد، وبعد الانتهاء، فوجئنا بإطفاء كامل الإضاءة للحظات وعندما عادت كانت هناك مائدة تحمل تورته كبيرة عليها اسم العمل اصطففنا حولها، حضر بعض ممثلي جهة الإ نتاج، تبادلنا الكلمات، سأل المخرج، (الفنان أحمد عبد العزيز) الذى كان يجسد شخصية الإمام.

= ما شعورك بحضور حفده الإمام وأبناء قريته؟

= أحسست بأني لا أمثل بل أعيش الحدث ذاته وكنت سعيدا بهذا.

عدد من الصحف والقنوات حاضرة، انتهينا من مراسم الحفل

Edit with WPS Office

وودعناهم جميعا بسرور، عدنا ونحن نحمل عبق إنجاز حلمنا به طوي
لا، في الأيام التالية خرجت الصحف تحمل صورا للحفل، والقنوات أ
ذاعت مقتطفات منه، ووصل الأمر إلى اتصال مجلة (نصف الدنيا) بـ
ي ترغب بالحضور للقرية وعمل ريبورتاج مصور عن الإمام، حضروا
جلسنا بمنزل الحاج (إسماعيل عثمان) رحمه الله مع حضوري
وحضور صاحب المنزل والحاج (أحمد عمر مخلوف) حفيد شيخ ا
لكتاب الذى تعلم فيه الإمام القرآن الكريم ، (ود/عهدي السيسي)
(ود/مصطفى السواحلي)، أساتذة الجامعات وأبناء القرية، وخرجت
المجلة تحمل بعدد من أعدادها ريبورتاجا على عدد أربع صفحات،
بقى أن أنوه أن الجينات الوراثية متوارثة بقريتنا للآن، ما من بيت إ
لا وبه من يدرس بالأزهر الشريف، والغالب الأعم وهم كثر من حملة
الماجستير والدكتوراة أزهريون ، والقرآن هو ربيع القلوب والبيوت و
الأوقات بقريتي.

=14=

الحلنجي

====

منذ أن تعلم الحبو حتى ظهرت عليه ـ مبكرا ومبكرا جدا ـ بعض
صفاته التي سوف تلازمه دوما بل وصارت عنوانا كبيرا له، دائم
النظر إلى ما بيدي وعند الآخرين، عندما كان يلعب مع أقرانه كان
دائم التشاحنات ، وسبب رئيسي في بكاء الجميع، يخطف ألعابهم و
طعامهم، ولو كان وقتها يستطيع أن ينزع ثيابهم لفعل دون
أي تورع ! شب على هذا بكل مراحله الدراسية، دائم السطو وبالإ
كراه على كل شيء، من أول (الساندوتش) حتى كل المحتوى غير
المتوفر لديه، تجده يهرول إلى المناطق المشتعلة صراعا يشاهد و
يتأمل ثم يعلن انحيازه لطرف دون الآخر، وبعد انحيازه لا يتورع
وبكل صفاقة أن يطلب المقابل، المقابل كان يتصاعد بتصاعد الأيام
والسنين، بداية من بعض النقود حتى وصل إلى طلب أن يتكفلوا
بمصاريفه الخاصة على الدوام، قد يتبادر إلى رؤوسكم سؤال، ما

Edit with WPS Office

سبب إستجابة الجميع له؟ أقول لكم : كان جيد الإقناع ، يجيد فن الكلام، يدس السم في العسل بمنتهى الحرفية، استحالة أن تتخيل أ ن هناك أهداف أخرى ، أو وراء الأكمة ما وراءها، كبر وكبرت أساليبه، تقرب رويدا رويدا من كبار القرية، يجلس منزويا يسمع نقاشاتهم واختلافاتهم ، يفهم نقاط القوة والضعف لدى الجميع، يستنبط بعض المصالح التي قد تدر عليه رخاء وثروة ، أسموه (الأصفر) تشبيها بشخصية (حمادة الأصفر) في رواية (أنا الشعب) إحدى روايات (محمد فريد أبو حديد)، لم يستطع أحد ـ وهذا اعتراف صرح به كل من تعامل معه من كل زوايا التعامل معه ـ أن يعرف بما يفكر أو يخطط له، الوجه دوما هادئ لا يشي بأي شيء يبطنه، عندما انتهى من دراسته الجامعية كان يملك سيارة، كانت متهالكة ولكن تسمى في النهاية سيارة ـ لا تتوافر لأبناء طبقته، ارتاد جلسات الكبار عن طريق صداقات كان حريصا على تكوينها مع أبناء عليه القوم، بحضور مناسباتهم، يتفرس ويتأمل ويحلل الحضور ثم يحدد الهدف الذي سوف يكون سلما متعدد الدرج لصعوده، أدرك باكرا أن عالم السياسة هو مغارة علي بابا بها الكثير من اللآلئ الثمينة، انتسب لحزب الأغلبية بأساليبه التي يجيد توجيهها نحو الهدف بدقة، أقنع أصحاب القرار بأن يتولى الوحدة الحزبية بالقرية، وبالفعل أدار دفتها جيدا، أصبحت القرية بها أكبرعدد من الأعضاء متميزة على م ثيلاتها، أصبح قادرا على توجيه الأعضاء للحضور بكثافة لكل فاعليات الحزب على مستوى المركز والمحافظة والدولة، في المناسبات الكبرى بالحزب تجد سيارات تأتي إلى القرية تمتلئ بكل الشرائح، هو يمتلك القدرة الفائقة على الإقناع، أصبح يقفز درجات السلم الحزبي بسلاسة، الأبواب تفتح له ، ترقى إلى أمين الحزب عن المركز ، طموحاته تزداد، هو يخطط للأكثر، ترشح للمحليات بتبريكات من قيادات الحزب، نجح لأسباب عدة، منها أن الحزب يمنح صكوك النجاح أو الإخفاق لأي عضو حسب رؤيتهم أن هذا أو ذاك سيكون ترسا جيدا بآلات الحزب وأهدافه، وسوف ينضم إلى عرائس الماريونيت المتعددة الألوان ، وفنون العروض المسرحية على الملعب السياسي ، دون أي خروج على النص الموضوع بحرفية تامة، كان يحضر كل الجلسات حتى جلسات اللجان المتخصصة

Edit with WPS Office

يستمع ويتمعن فيما يسمع، حين يخلو إلى نفسه يعيد شريط ما ا ستمع إليه، يفنده ويخطط ويكتب ملخصات، أخذ يشارك يطرح التساؤلات وطلبات الإحاطة عرف الطريق إلى الجلسات غير الرسمية والتي هي بالحقيقة رسمية بها تعد التساؤلات التي سوف تناقش ومن يطرحها ، وهل تنتهي لقبولها أو رفضها، المطبخ السياس ي به كل صنوف الوجبات التي يرحب بها بالتصفيق الحاد أو التي تفرض كرها وأيضا بالتصفيق الحاد وبالهتافات الحنجورية ، و الشعارات الطنانة، بقدراته الفائقة دخل المطبخ ، وأخذ يتفنن بصنع أطعمة تؤكل بشهية متناهية دون حاجة إلى فواتح شهية، هو يجيد توزيع البهارات بكل أنواعها بحيث تكون جاذبة للكثيرين، توسم به الكبار أنه صنايعي سياسي فريد من نوعه، اتفقوا على إرخاء اللجام السياسي له بلا حدود ، وأكثر رحابة وسعه حتى يظل لعابه سائلا بلا توقف وهم الرابحون، هم دوما بحاجة إلى لاعبي سيرك يطورون من ألعابهم حتى يظلون إلى الممات مسترخين رافعين الساق على الساق وتنتفخ الجيوب والبطون، وتكثر مكاسبهم ، ولا شيء يهم بعد ذلك، دفعوا به إلى الترشح إلى رئاسة المجلس المحلى، أعدوا الوجب ة جيدا من ضمان تصويت ـ اعتادت عليه عروبتنا ـ اقترب من المئة بالمئة ، نال أحد الأحلام، جلس على المقعد منتفخ الأوداج وانتشى، قبل أي جلسة يجلس مع مقربيه يعد معهم كل شيء ، توزيع الأدوار في المناقشات ، من يبدأ ومن يوافق ومن يعترض ومن يحتج وينصرف من الجلسة متذمرا مضيفا نكهة جديدة للمطبخ ؟ صار يؤ م كل المناسبات من عزاء وأفراح وزيارات مرضى وممكن جدا أن تجده على رأس المحتفلين بطهور أو سبوع طفل لأحد أبناء الحاشية الحزبية، ولا مانع لحضور بعض مناسبات الطبقات الكادحة إعلاء من شان الديمقراطية للجميع وترسيخها بقوة، أصبح يسير مرتديا عباءة فوق بدلة فخمة ، ورابطات عنق تناسب اللون، العباءة تتغير بتغير نوع البدلة ولونها وطريقة تصميمها، وخلفه يسير جمع ، البعض يرغب في أن يكون يوما أستاذا مثل من يتبعه، والبعض يكفيه شرف التواجد بالملعب والمطبخ يتناول فتات ما يتبقى وهو قرير العين سعيد، الكبار أيقنوا أنه ثروة ، وعرفوا كل مداخله، يرمون إليه بحلم من أحلامه ولا يخجل إن قرفص وأخذ يلعقها، ويرقص

Edit with WPS Office

طربا، الحزب ساعدة للعمل بوظيفة لا يعرف طريقها إلا أصحاب الحظوة والمحسوبية، كانوا سندا له لتخطى الكثير من استحقاقات زملائه من ترقيات وحوافز، حتى حين رغب بالزواج، وفروا له عروسا تكون خيطا إضافيا لتنفيذ المهام التي توكل إليه، كلما أرادوا نزال أو مصارعة أو مقارعة أحد الخصوم من أحزاب وتيارات أخرى ، أو حتى من يودون الإطاحة به، دفعوا به والتفوا حول حلبة المصارعة يهتفون ويصفقون ويهللون، وللأمانة كان يجد كل أنواع النزال وفنونه ، كان ينفذ التوجيهات دون نقاش الأمر الذى يضعه في رأسه حين موافقته، مردود هذه الموافقة عليه ومكتسباتها، العمل دوما بمبدأ سائد (شيلني واشيلك)! مع مرور الأيام جدد بيته ، اتسعت مساحته وجهز به قاعة لقاءات صار له أصفياء وأدوات يوجهها تعويضا له عن توجيهات يؤمر بها ، والبيت لا يخلو من الجلسات والسهرات وإعداد خطط ومقترحات لا يتكلف شيء من تكلفة كل هذا، البيت تطرق بابه الهدايا والمنح بلا توقف حتى إن أحد أصحاب التعبيرات الساخرة أطلق إحدى سخرياته التي ظلت مرادفة له حتى رحل. يخيل لي ان الجميع يصعد إلى أسطح بيته ممسكا بهديته ومنحته ينظر إلى السماء ويصرخ مطلق سراحها سيرى ببركة الله إلى ولي مصالحنا.

تصاعد سقف طموحاته ،ارتفع لأعلى ارتفاع ممكن ، أخذ يتحين الفرصة، ازداد قربا من قيادات على مستوى الدولة حزبيا، مارس على مسرحهم بعضا من ألعابه المبهرة، اتسعت حدقاتهم انبهارا بمهاراته البارع في تغييرها كل حين لتناسب كل الأجواء، ظل يزداد قربا حتى طلب أن يحظى بشرف الترشح لعضوية مجلس النواب عن دائرته ، على قائمة الحزب، ظل يلح ويلح القائمة كانت مسبقة ا لإعداد ، أقنعوه بالترشح على النظام الفردي تحت مظلة الحزب ، وافق ـ مرغم أخوك لا بطل ـ أخذ يطوف البلدان تصاحبه زفات السيارات والحشود التي تتنوع أسباب تواجدها، فهذا زمن غلبت عليه صبغة المصالح والمنافع ،لا شيء بلا مقابل، الشواهد تشير إلى نجاحه، بل هو ذاته أعلن هذا دون خجل، ركن إلى الهدوء وجاءت الطامة الكبرى بإحدى السهرات عند عائلة لها حيثيتها، أقنعه أحدهم

Edit with WPS Office

بتناول حبه دواء ، قال له : إنها تذهب عنه العناء والتعب، في الحقيقة طوال عمره كان يرفض مبدأ تناول أي من صنوف المخدرات أو المشروبات ، ولكن لا يدري لماذا قبل؟ تناولها كانت هي من أطلقت عقال لسانه،انطلق مستعرضا بعض أرائه السياسية وتكلم عن قيادات بشكل فاحش وفضح خصوصيات البعض ، ولأن كل لا عب هناك من ينتظر أن يحل محله، نقل الحدث لحظيا إلى الكبار، أخذوا قرارا حاسما وباترا دون إعلان بأن يتم إسقاطه ، وبالتالي ا عتزاله إجباريا ممارسة اللعب على الملعب السياسي، فعلوها بما لهم من قدرة سابقة، جاءت النتيجة عكس أحلامه ،سقط مغشيا عليه، حمل إلى المستشفى ، وجاءت النتيجة أنه مصاب بأزمة قلبية حادة ومحتاج عناية فائقة مع الدعوات، أيام قليلة لم يستطع تطويع ح الته وإعادتها إلى سياقها، أسلم الروح وشيع وسط حشود كبيرة هي بالتأكيد اعترافا بمهاراته التي ظلت تبهرهم سنوات وسنوات، بعد أيام من الدفن بحث الحزب عن لاعب جديد أكثر مهارة من سابقه، وأطلق سراح مسمى كان قابعا داخل صدور الغالبية ، صاروا عندما يتحدثون عنه لا يقولون اسمه صار المسمى الرسمي والموثق و المعتمد لدى كل الأوساط " الحلنجي"!

=15=

العودة

====

توفي الأب (سيد محمد منصور) وسلك كل واحد من إخوتي طريقه ، كل منهم غادر إلى مدن وأوطان أخرى، تباعدت المسافات ،زيارات على مضض لرؤية الأم التي اعتزلت كل شيء بعد أبي، فقط الصلاة وقراءة القرآن والزهد في كل شيء ، لم يمر العام إلا ولحقت به ، بعدها تباعدت اللقاءات والعلاقات، الأم هي من تظل دائما مظلة البيت، اليتم الحقيقي موت الأم، خلا البيت علي ، شعرت كانه يضيق يوما بعد يوم، وسارت بي أيامي على نحو رتيب ممل، الذهاب للعمل، العودة ومتابعة شيء من أعمال الأرض التي امتلكتها أنا وإخوتي، أ باشرها من كل الزوايا، وفي نهاية كل محصول أعد كشفا بما تم

Edit with WPS Office

صرفه وما تم تحصيله من الثمن يوزع ، كل أخ أو أخت يأخذ حصته .

اعتدت الجلوس ليلا على الأرائك الخشبية المجاورة لمدخل البيت من أيام الوالد رحمه الله، يأتي بعض الأصدقاء الأقرباء نتسامر نحكى همومنا ونتشاور في أمور تخص أيامنا، نجلس أحيانا نسمع إذاعة أم كلثوم والأغاني القديمة التي دوما تشع أحاسيس جميلة داخل نفوسنا وأفئدتنا ـ التي تشيخ يوما بعد يوم ـ استمر الحال حتى بدأ الأولاد يطلبون بإلحاح أن ننتقل للمدينة ونعيش كما يعيش أبناء أعمامهم وعماتهم وبعض من أخوالهم، رفضت كثيرا ولكن مع البكاء والتوسل وضعف مشاعري أمامهم وافقت، طلبت النقل إلى الإ دارة ، توسط لي بعض من كان أبى سببا بعملهم ، حدث النقل، تركت شؤون الأرض لابن عم لي بيني وبينه علاقة وثيقة وحب متبادل، أحسست وكأني ذهبت تاركا روحي بقريتي، في البدايات كنت أعود لها كل يومين ،أعيش نفس طقوسي الماضية، أرتدي الجلباب البلدي وأتمشى بكل شوارعها وحواريها وزراعاتها، كأنى أضخ إلى ذاتي مزيدا من العبق والذكرى أعيش به حتى أعاود الزيارة، ظللت على هذا لسنوات قد تصل لخمس، كان يوم الجمعة هو أحب الأيام حين وجودي ببلدتي، صلاة الجمعة الخطبة المطولة من شباب القرية خريجي الأزهر يط َو ِلون وكأنهم في مباراة فيما بينهم، أيهم أكثر فهما وشرحا ، وأيهم أكثر قدرة على إطالة الوقت مع عدم هروب المعلومة منه، ثم أخذت فترات غيابي تطول حتى وصلت إلى أني لا أذهب إلا لواجب عزاء أو فرح أو أمورا من هذا القبيل، ا بن عمى المشرف على الأرض يأتيني كل نهاية موسم حصاد يعطيني كشفا مقسما إلى مصروفات وإيرادات، ثم مرت الأيام وتقاعدت عن العمل وتزوج الأولاد، وخلا البيت علينا، حينها أحسست بالغربة تماماً ، الأولاد كانوا ستارا بيني وبين هذا الإحساس، الغربة كل يوم تزيد مساحتها ضاق صدري بها، كنت أهرب بالقراءة والصلوات بالمسجد ، وسماع دروس ما بعد الصلاة وبعض الجلسات ممن هم مثلي على المقهى، ولكن كل هذا لم يستطع إخراجي من الغربة، أيقنت أن السبيل لفك أسري من هذا هو العودة إلى بلدتي، صباح يوم خرجت

Edit with WPS Office

لا ألوي على شيء ذهبت إلى بيتنا الذى تم هجرانه لسنوات، و قصدت بعض أبناء عمومتي طلبت مساعدته في إحضار من يعيد تجهيز البيت للمعيشة، تم الاتفاق بيني وبين مقاول على إعداده وتجهيزه من كل شيء في مدة شهرين، أدخلت ما تبقى من أثاثات إ لى غرفة وأغلقت عليها، أخذت أتردد يوميا لمتابعة العمل، كلما ظهرت ملامح التجديد كلما شعرت أن العمر يتراجع للخلف خطوات، انتهى العمل كما تم تحديده من قبل انتقيت أثاثا تراثيا "كلاسيكا" يحمل روح الماضي مع تدعيمه بما يلائم محدثات التغيير الزمني، رغم تغير الظروف وخضوع كل شيء للتغيير "العولمي" إلا أنني صممت وبشدة على بناء مصطبة بجوار مدخل البيت أسمنتية بدلا من الطينية مواكبة للتغيير ، ودعوت كل الإخوة وعائلاتهم لحضور اليوم الأول لعودتي ،وأيضا لعودتهم، أعددت ذبيحة لنحرها منعا للحسد ـ كالعرف السائد، وأيضا تقربا إلى الله ليبسط بركاته على البيت وسكانه ، كل يوم وليلة كنا نجلس لنستعيد ذكريات نحملها على كاهلنا، نوادر ومشاكسات مررنا بها ، حكينا للأولاد والأحفاد قصة البيت وسكانه، أصررت على مبيت الإخوة معي ، وافقوا أتيت لهم بجلاليب وعباءات تحرروا من الزي الرسمي الذى يصاحبه بعض التكلف بطبيعة الحال، جلسنا على المصطبة ، وسط أجواء من الود و الحب الذى تجاهلناه سنوات بداعي أن الحياة ومتطلباتها هي السبب ، ولكن السبب يكمن في انصياعنا لعالم التكنولوجيا الذي هدم الكثير من الدفء والتراحم، آه لو كانت العولمة وأسلحتها ـ شديدة الفتك و القتل وإفناء القيم والأخلاق والأعراف والسيكوليجيات رجلا أو ا مرأة ، لوضعتها خلف القضبان للأبد، وربما أحكم عليها بالإعدام بكل الطرق، طالت الحكايات وعلت الضحكات وتساقطت الدموع حنينا لسنوات تاهت من بين أيدينا، احتضن كل منا الآخر بحميمية عفوية، انصرف الكل وتركوني وحدي ظللت هائما في محيط الماضي لوقت لم أنتبه لعدد ساعاته التي مرت، فقد صحوت وجدت نفسى نائما على وضعي الذى تركوني عليه، صممت على بناء فرن على نفس بناء الأفران القديمة بقريتي ، والتي تحولت بفعل التطور العولمي إلى أفران بالغاز ، أصررت على أن يكون الخبز طازجا "خبيز يوم بيوم"، استنشاق الدخان المتصاعد من الفرن له قدرة فائقة على استنهاض

Edit with WPS Office

كل الماضي من سباته المميت، أتيت بسيدة من أقربائي، تقترب من الشيخوخة مشهود لها من زمن بعيد بتميزها في صناعة كل أنواع الخبز وما يشبهه، تعمدت أن يجلس الأحفاد الصغار ليروا بأعينهم كيفية صناعة الخبز ورائحته الجاذبة للشهية، أجلسهم على مقربة من الفرن يشاهدون، أطالب بإعداد الخبز المحلى بالسكر والسمن البلدي، وأيضا بالعسل، كانت عيونهم تضحك تعبيرا عن سعادتهم ويصل بهم الأمر للتدافع للحصول على المزيد، ووصل الأمر بي أن ط البت أبنائي بأن يفعلوا نفس الشيء، فعلوا خجلا وهم يتضاحكون، أخذتهم في أيام أجازاتهم في جولات بين الحقول ببواكير الصباح ، وندى الصباح ينعش الوجنات، والغذاء كثير، تناولنا الفطير والجبن القديم والأبيض القريش والعسل أبيض وأسود، وكثيرا ما كنت أدعوهم لشواء الذرة على نار الحطب والخشب ، يعقبه شاي مصنوع على راكية (طوبتان بينهما أخشاب تشتعل) تعطى نكهه مغايرة لطعمه الذي اعتادوا عليه في منازلهم ومكاتب عملهم، الأطفال يلعبون بين المزروعات توردت وجناتهم، علت الدهشة وجوه الأ مهات، أجبت لسبر أغوارهم، إنها الراحة النفسية والأوكسجين النقي ، وانطلاق خلايا الجسد ببراح تبحث عنه دوما لها مفعول السحر، جلسات الليل مع الأصدقاء تمتد دون أي حساب للزمن نستعيد أحداثا سعيدة أو مبكية، نتذاكر الأحياء ومن رحلوا، تجعلنا نستلقى على ظهورنا من فرط الضحكات، أو نبكي البكاء الحار الصادق، الكاسيت يردد دوما رائعة (مارسيل خليفة) "أحن إلى خبز أمي " وأ نا للأمانة أحن لكل أيامي التي ضاعت وسط علب المدينة المسماه شقق سكنية، المدينة تنسيك رغما عنك حميمية ودفء العلاقات الا جتماعية، ما أحلى أن نعود إلى ارتداء أثواب الماضي بجماله العفوي ، كنت أنام دون أي مؤرقات أو هواجس وكوابيس، كل منا يحتاج فعليا للعودة إلى الذات العودة إلى الطبيعة التي دفعتنا دفعا إلى مغادرتها بالإدارة الكاملة أو بلا إرادة.

أحمد طايل

طنطا

Edit with WPS Office

Edit with WPS Office